مجلة "مدارات في اللّغة والأدب" الصادرة عن مركز مدارات للدراسات والأبحاث، تبسة–الجزائر.

المجلد:01.العـدد:05. السنة 2021، ص 143– 189
ISSN 2661-765x

السجن والسلطة والإبداع مدخل نظري لأدب السجون وقضاياه

Prison, Power and CreativityA theoretical introduction to prison literature and issues

د.مصطفى عطية جمعة*

كلية التربية الأساسية، الكويت

البريد الالكتروني: mostafa_ateia123@yahoo.com

ملخص البحث

المستهدف في هذا البحث تقديم إطار نظري حول أدب السجون والاعتقال السياسي، والذي نرى أنه نتيجة وثمرة عن عوامل عديدة وأوضاع متشابكة، تتمثل في واقع سياسي استبدادي، وحكم ديكتاتوري، وكتم للحريات، وإشاعة المظالم، واعتقال المثقفين والمبدعين. وفي ضوء ذلك، جاء هذا البحث في محاور، تناقش عددا من القضايا ذات الصلة، مثل السجن مفهوما ووجودا وعقوبة وبشرا، والاستبداد وسلوكيات الطاغية، وأثره على المثقفين، وأشكال العقوبة الفكرية والنفسية والجسدية التي ينتهجها المستبدون ضد خصومهم خاصة من المثقفين والمبدعين. وسيكون نهجنا تقديم تأصيل معرفي، منهجيته التحليل عامة، وتحليل الخطاب بشكل خاص، مع ذكر أمثلة لروايات وأفلام سينمائية، لتعميق المفاهيم، وتدقيق الاصطلاحات.

الكلمات المفتاحية: السجن، أدب السجون، الاستبداد، المثقف، الطاغية.

Abstract:

The target of this study is provides a theoretical framework about prison literature and political detention, It is an output of political authoritarian reality, a dictatorial rule, the suppression of liberties, the spread of grievances, and the arrest of intellectuals and creators. The research came in axes, discussing a number of related issues, such as imprisonment, concept, existence, punishment, and human beings, tyranny and the behavior of the

* المؤلف المرسل: د. مصطفى عطية جمعة mostafa_ateia123@yahoo.com

tyrant, and its effect on intellectuals, and the forms of intellectual, psychological, and physical punishment that tyrants pursue against their opponents, especially intellectuals and creators. Our approach will be to provide epistemological rooting, its methodology of analyzing discourse, with examples and references cited to clarify the idea, deepen concepts, and validate conventions.
Keywords: Prison, Prison literature, Despotism, The intellectual, The tyrant.

مقدمة:

إذا كانت الآداب والفنون سبلا لإشباع الوجدان والذائقة والحاسة الجمالية في نفوسنا، فإنها أيضا معبرة عن ذواتنا وخواطرنا وتفصيلات معيشتنا. بل إنها تصوغ أحلامنا وهواجسنا، وتصف بدقة تقلباتنا النفسية وتحولاتنا الفكرية، بجانب رصدها للواقع المعيش زمنيا ومكانيا، فتكمِلُ جهود: المؤرخ والفيزيائي وعالم الاجتماع والإعلامي وغيرهم، وتقدّم ما يعنّ للنفس في التفاتاتها نحو الجزئيات والمتناثرات. هذا، وتتنوع طرائق الفنون والآداب في توصيل مبتغاها، ما بين التعبير اللغوي عند الأديب والمدوّن، والألوان والخامات متعددة لدى الفنان التشكيلي، واللقطات المرئية عند الفوتوغرافي والسينمائي، والنغم والصوت مع الموسيقيّ والمطرب .

وهي، أيضا، تقدّم الكثير من الغائب أو المغيّب في حياتنا، وما أكثره، فغالبا ما تعكس الآداب والفنون المظاهر المعتادة في حياة البشر، أي الوجوه والملامح والأشياء والأمكنة والأحداث والشخصيات، التي يمكن للعين رصدها في المعيشي واليومي والحياتي . ولكن هناك وجوها أخرى، يمكن تسميتها بالأوجه المظلمة، التي تعبر عن المسكوت عنه في تاريخنا وواقعنا، ونعني به أدب السجون وسرديات الاعتقال السياسي . لأنها بالفعل جوانب لا يتم التطرق إليها غالبا في الأدب والفنون، على الأقل خلال الفترة حدوثها، خشية عسف السلطة وتعرّضِ المبدع إلى ظلمها . خاصة في عالمنا العربي، حيث عانى الكثير من المثقفين – ولا يزالون – من النظم المستبدة، ودفع الكثيرون

أثمانا باهظة من حياتهم وأعمارهم . وقد سكت البعض عنها مؤثرا السلامة، أو لأنه لا يمتلك الموهبة الكافية ليصوغ تجربته إبداعيا، والبعض الآخر أمسك القلم أو الفرشاة الكاميرا، ليصوغ تجربته في المعتقل في مدونات أدبية أو أعمال تشكيلية أو مرئيات .

وفي هذا البحث، نتناول هذا اللون الإبداعي، ألا وهو أدب السجون وسرديات الاعتقال السياسي، ساعين إلى تقديم منجز نقدي، يضاف للتراكم النقدي في هذا المجال، آملين طرح المزيد من الأسئلة، وإثارة العديد من القضايا، التي يمكن أن تقدم مسارات جديدة، لجهود نقدية أخرى في هذا السبيل.

وفي ضوء ما تقدم، تتمثل الإشكالية في هذا البحث، ألا وهي: مناقشة أدب السجون وقضاياه، وما يتصل به من إشكالات وتداخلات، تشمل علاقة السجن بوصفه مكانا بالبشر، وتأويل ذلك، وأيضا علاقة السجن بالسلطة، خاصة إذا كانت سلطة مستبدة، وكيف أن السجن سبيل للعقاب تستخدمه السلطة ضد المعارضين السياسيين، خاصة فئات المثقفين، وصولا إلى علاقة المثقف بالثورة والاستبداد، والذي يدفع حريته ثمنا لهما.

أما الأسئلة المتفرعة عن هذه الإشكالية فيمكن بلورتها في سؤالين أساسيين: ما علاقة السجن بالسلطة وبالاستبداد وبالعقاب؟ وكيف تعامل المثقف المعتقل سياسيا مع السجن بوصفه عقوبة على مواقفه السياسية نحو الثورة والاستبداد؟

وفي الإجابة عن هذين السؤالين، نصل إلى هدف البحث، ألا وهو تقديم رؤية شاملة ما أمكن؛ تقرأ أدب السجون في أبعاده السياسة والثقافية والاجتماعية والجمالية، بعيدا عن القراءات الأحادية، أو التي تقتصر على قراءة بنيويا أو فكريا مثلا، دون التطرق إلى القضايا الفكرية والسياسية والفلسفية المتصلة به، خاصة ما يتعلق منها بالثوابت والمثُل والمبادئ التي ضحّى المثقف المعتقَل من أجلها، وموقف الآخر منه، سواء من الصامتين أو المتعاونين مع السلطة أو المتوارين في الداخل أو المنفيين . وقد جاءت منهجية البحث انطلاقا من رؤية؛ تجمع بين النظري والتطبيقي، والمفهوم والمثال،

والاستشهاد والتحليل، فلا تكتفي بالطروحات النظرية، وإنما تقرنها بالأمثلة من التاريخ أو السرد أو السياسة . كما لا تكتفي بمناقشة جانب واحد، وإنما تحاول قراءتها في أبعاد متعددة؛ عبر تفعيل المنهج الوصفي التحليلي، وأيضا المنهج التاريخي، والمنهج التأويلي.

أما محاور الدراسة، فقد تفرعت إلى خمسة محاور، وهي: السجن والمكان والبشر والتأويل، السجن والحرية والسلطة، الاستبداد والعقاب، المثقف والطاغية والسجن، المثقف والثورة والاستبداد.

أسال الله تعالى أن يكون هذا العمل لبنة تضاف لجهود سابقة ولاحقة، تسعى إلى تسليط الضوء على نفوس جعلت من ذواتها وأجسادها جسورا لغدٍ أفضل ليس لأوطانها فحسب، وإنما لأمتها، وللإنسانية جمعاء .

1.السجن: المكان والبشر والتأويل:

يبدأ أدب السجون والاعتقال ببكائيات المعتقلين في السجون، والنظر فيما سطّروه من آلام وعذابات، لا جدال في مظلوميتها، ولا في كونهم تحملوا قهرا وتسلطا للتمسك بمواقفهم والتشبث بآرائهم، وحرصهم على نقاء نفوسهم، وهم يرون أعمارهم تذوي كل لحظة خلف القضبان، ويعيشون انتهاك آدميتهم كل يوم، وهم يرون أحلامهم بأوطان سعيدة تصطدم بواقع تعيس، وشعوبٍ منهكة خائفة، ورفاقٍ اختاروا المنافي أوطانا، أو بنوا في نفوسهم قصورا من الذلة تحصنوا فيها وهم في خارج السجن، أو ارتكنوا للنظام نفسه. وفي جميع الأحوال فإن السجناء المخلصين اختاروا المواجهة، ولو شاءوا التنازل لفعلوا، وهو ما يحسب لهم.

ولكن هناك دائرة كبرى تحيط بهذا السرديات؛ تشمل: ما قبل، وفي الأثناء، وما بعد.

فما قبل يعني: الحاكم المستبد ومنظومته، والشعب المحكوم وقضاياه، والإعلام الموجه، والمعارضة بأفكارها وتطلعاتها وتحركاتها. وكلها تشير إلى ما يحيط بالسجن من ظروف سياسية واجتماعية وأمنية. أما في الأثناء، فهو يختص بما في السجن، من امتهان وإذلال، وكيف يواجهه المثقف، وينتصر عليه، محصنا ذاته من التلوث النفسي والانحدار الأخلاقي، ومن ثم يختزن كل ما مر به

استعدادا لمرحلة ما بعد، التي تعني تدوينه تجربة السجن، التي هي جزء من تجربة حياته الممتدة في نضالها، معتبرا السجن جزءا من النضال، وضريبة واجبة الدفع.

1.1.السجن المكان:

إن المكان ليس وجودا ماديا فقط، وإنما هو الوعاء والفضاء الحاوي للبشر فوقه، بكل مشاعرهم وذكرياتهم وأفكارهم وعلاقاتهم، بل إننا نفكر من خلال بيئة المكان، فمن عاش وأقام في البيئة الزراعية، يختف فكرا وإحساسا وسلوكا وتصورات عمن عاش في الصحراء أو في الغابات أو في المجتمع الصناعي أو المجتمع المعلوماتي، فنمط المعيشة مختلف: طعاما وسكنا وعلاقات اجتماعية ووجدانيات في كل بيئة عن غيرها، ومن هنا يأتي ما يفرضه المكان على الإنسان. وكلما اشتدت معطيات المكان تضاءلت قدرات الإنسان في مواجهته، ويتحول الأمر من صراع مع المكان إلى محاولات التكيف معه، والتعايش مع ظروفه وإن قست عليهم.

هناك أمكنة مفتوحة، وهناك أمكنة مغلقة؛ فالصحراء والغابات والجبال أماكن مفتوحة، ينطلق فيها الفرد شاعرا أنه يمتلك السماء والأرض، يركض ويلعب، وسيجد في بيئتها ما يملأ بطنه، ولكن أهم شعور يتولد فيه هو الحرية، وأنه سيد نفسه، وإذا دخل في طاعة القبيلة أو العشيرة، فإنها تكون مقابل حمايته والذود عن ذريته وأهله، والتعاون معهم في متطلبات الحياة الاجتماعية وشؤونهم المعيشية.

وقد تعايش أجدادنا العرب في الصحراء، معلنين قيمة الحرية، يستوي فيها الفقير والغني، لم يعرفوا سجونا أو معتقلات، فمن تمرد رحل وتصعلك أو خلعته القبيلة. فالدستور السائد وقتئذ: أن أفراد القبيلة جميعا متضامنون، وفقا للمثل العربي القديم: "في الجريرة تشترك العشيرة"، وتعني أن النجدة بين أبناء القبيلة لا تحتمل انتظارا، وإجابتها واجبة النفاذ، وفق لمبدأ "انصر أخاك ظالما أو مظلوما"، في مقابل طاعة الفرد للقبيلة، واحترام رأيها الجماعي، وتنفيذ ما تم الاتفاق عليه، وإلا

كانت عقوبته الطرد خارج القبيلة حاملا لقب "الطريد"، وعليه أن يبحث عن جوار مع قبيلة أخرى تتولى حمايته ويدخل هو في طاعتها[1].

وهناك فئة تمرّدت على قبائلها التي تحمل نسبها، ورفضت في الوقت نفسه الجيرة مع قبائل أخرى، مفضلة العيش بحرية في الصحراء الشاسعة، فإذا أعوزتهم مشقات الحياة، فحتما سيجدون قبيلة يستجيرون بها[2]، ومن هنا تكونت ظاهرة الصعلكة، والشعراء الصعاليك، وجوهرها: بحث هؤلاء الصعاليك عن مزيد من الحرية، وإن كانوا مطاردين منبوذين شديدي التمرد على قبائلهم الأصلية.

وفي جميع الأحوال، يتنازل البدوي العربي عن جزء من حريته في مقابل النظم الاجتماعية والقبلية التي توجب عليه الدخول فيها، ومن هنا كان إدراك العربي القديم لقيمة حريته، وأن حبس الحرية عنه – لأي غرض كان – إهانة وعقاب له.

على عكس الحياة في الحواضر (المدن والقرى)، حيث تخضع المعيشة لوسائل يتحكم فيها الإنسان (الزراعة ومتطلباتها، الصناعة ومصانعها..إلخ)، لذا استلزم الأمر وجود سلطة وحكم ومؤسسة ومحاكمة وشرطة وسجن.

2.1. السجن والبشر:

إن شأن السجن– كمكان– شأن كل الأمكنة في حياتنا الإنسانية، له ضروراته وشروطه وفيه البشر القائمون على إدارته، وهناك البشر المحبوسون خلف جدرانه.

فالسجن prison هو المكان الذي تحتجز فيه حرية الأشخاص الذين يمارسون أفعالاً تلحق الضرر بالآخرين، أو من المتوقع إقدامهم على مثل هذه الممارسات، على أن يكون الضرر الناتج أو

[1]. د.يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في المجتمع الجاهلي، ، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف ، القاهرة، 1978م، ص91-96.

[2]. المرجع السابق، ص98.

المتوقع نتيجةَ فعل قصدي، أو أن يكون الحجز شكلاً من أشكال العقاب المفروض على الفاعلين، أو أن يتحقق من خلال عملية الحجز درء المخاطر. وهناك السجون السياسية، التي تخص الأفراد الخارجين عن سلطة الدولة، ويطمحون إلى تغيير بعض أنظمتها[3].

وليست المشكلة في المجرمين المعاقَبين قانونيا، وإنما في هؤلاء المحبوسين ظلما، وقد حملوا في صدورهم أحلاما جميلة عن التغيير نحو الأفضل، وجاء حبسهم عقابا لهم على حلمهم، وتطلعهم إلى التغيير، خاصة إذا سُجِنوا دون محاكمة، وإنما بأوامر مباشرة من الحاكم أو من ينوب عنه.

يلج هؤلاء السجون، ويقضون بعضا من أعمارهم، ويخرجون وقد تغيرت نفوسهم وتغيرت الدنيا من حولهم أيضا، وبعضهم يعبر عن تجربته في السجن حكايات شفاهية يقصها على ذويه والمقربين منه من أصدقائه، وآخرون يصوغونها نصوصا مبدعة: مقالات، ذكريات، خواطر، قصص، روايات..إلخ؛ لنجد في النهاية ما يسمى أدب السجون، ونكتشف أن السجن ليس أبنية عالية تحوي المجرمين بداخلها، وإنما هي عالم إنساني زاخر بالأفكار والأحداث والمشاعر والشخصيات، وفيه أيضا ذكريات طيبة، أو يجتهد من فيه لجعل الحياة أسهل في الاحتمال، وأجمل في المعيشة، ليتغلبوا على العذابات، ويشعروا أن أعمارهم لم تمض سدى، وإنما فيها ما يمكن الافتخار به من قيم وعزيمة وصبر واحتمال، وأيضا ذكريات حلوة.

1.3.السجن التأويل:

إن المكان –من الزاوية الأدبية– يمثل الخصوصية لأي عمل أدبي، خاصة في السرديات، فمهما حكى الإنسان، أو سرد، أو قص، أو روى، فلابد من وجود مكان مادي يحوي سرده، مثلما أن الزمن هو الوجه الآخر للمكان، فلا مكان دون زمن، ولا زمن بلا مكان، وإذا نظرنا إلى أدب

[3]. الموسوعة العربية Arab Encyclopedia ، مادة سجن، https://www.arab-ency.com/ar-

السجون برؤية مكانية، سنجد حتما أن الزمان لا ينفصل عن تجربة الراوي الإنسان، لأنه قضى سنواتٍ من عمره فيه.

والمفارقة في أدب السجون أنه يتجاوز في إبداعاته مفهوم "المكان الأليف"، المحبب للنفس كي تعبر عن عالمه بكل حنين وحب وانتماء؛ فالسجن وإن كان بمستوى معيشة فندقية فهو في النهاية سجن، ليس أليفا لأحد، وإنما هو "المكان المعادي"[4] لمن اعتقل خلف جدرانه، وإن حفل برفاق محبوبين متجانسين.

وإن كان مفهوما: المكان الأليف والمعادي مختلف عليهما، لأن الأمر يتعلق بالناحية النفسية للسارد، بمعنى أن علاقة الذات الساردة بالمكان تحدد مدى الألفة أو المعاداة، وهي علاقة نسبية، فلا يشترط أن تعبّر الذات الساردة عن مكان ألفته وصارت علاقتها حميمية به، فمن الممكن أن تعبر عن مكان معادٍ لها، تريد البوح بما في أعماقها عنه، سواء أكانت تجربة أليمة أم حميمة.

فالسجن – مثلا — على كل ما فيه من مشقة وتعب، إلا أن هناك ذكريات عزيزة تتكون مع رفاقه، تخفف من محنة السجن، وتصنع ذكريات بمذاق مختلف، لأنها نموذج في المعاناة والصبر من ناحية، وفي الصحبة والألفة من ناحية أخرى.

وفي المنظور الأدبي، يكون المعيار هو ما يمكن نعته "بالمكان الحافز" أي الذي يحفز المخيلة الإبداعية، فهناك عشرات الأمكنة التي نسير فيها ونحيا، وقليلة هي التي ترسخ في النفس حميمية، والأقل هي التي يمكن أن تحفزنا إبداعيا.

[4]. غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1984م، ص31.

وهو ما يؤكد عليه "باشلار" ويوضحه بقوله: "إن المكان الذي ينجذب نحوه الخيال، لا يمكن أن يكون مكانا لامباليا، ذا أبعاد هندسية وحسب، فهو مكان قد عاش فيه البشر ليس بشكل موضوعي فقط، بل بكل ما فيه من خيال وتحيز"[5].

والخيال يعني الإبداع، الذي يرى في أيام السجن ورفاقه وأحداثه مادة لصنع عمل إبداعي: روائي أو شعري أو مرئي، وأيا ما كانت ماهية الإبداع، فإن المكان حافز، والخيال يعطيه الرؤية، والإبداع يحوله لمعطى جمالي.

فمن الأهمية قراءة السجن بوصفه مكانا وبشرا وأحداثا وذكريات، وتكون القراءة هنا بعيدة عن المنظور القانوني الشرَطي، ونقرأ أيضا ما حول السجن: الشعب، الحاكم، الاستبداد، المثقفين، وما بينهم من علاقات. ونقرأ ثالثا تنظيرات مع بعض الأمثلة السردية، والاستشهادات الأدبية والسينمائية، ولنقترب أكثر من ماهية السجن في علاقته بالبشر داخله، وبالشعب من خارجه.

في ضوء هذا، من المهم مناقشة الثالوث المشكِّل لأدب السجون: السجن والاستبداد والمثقف، فالمجتمع الحرّ لا يسمح بسجن الأحرار والمبدعين والمثقفين، وإن اختلف معهم، أما المستبد الذي أحكم السيطرة على مجتمع وقهره، فهو يبني السجون ويزيد منها؛ موقنًا أن المثقفين هم عدوه الأول، لأنهم يشكلون عقول الأمة وصانعو التغيير فيها؛، وموقنا أيضا أن في كل شريحة معارضين له، وأن في كل مواطن – وإن خنع – معارضا محتملا في المستقبل.

وتظل الدائرة مغلقة، حتى يأذن الله بالتغيير، الذي يأتي من حيث لا يدري المستبد، ولا يتوقعه المثقف، ولا يتنبأ به أفراد الشعب، فتلك سنة الله في الأرض؛ بأن التغيير حتمي، فلا يتبختر مستبد بالسير على جماجم شعب، فربما تكون هناك جمجمة لمثقف، قال كلمة يوما، ودفع حياته ثمنا لها،

[5]. السابق، ص31.

إلا أن الكلمة أنبتت بذورا، صارت أشجارا، فأورقت، وأزهرت، وأثمرت؛ مَن جاء بالتغيير الحتمي، محققا مشيئة الله في كونه.

فيمكن القول: إننا لن نعي أدب السجون إلا إذا وعينا ما هو خارج السجن قبل معرفتنا بما هو خلف جدرانه. ولن نتذوق هذا الأدب، إلا بمعرفة كينونة ما أبدعه.

2. السجن والحرية والسلطة:

عندما نغوص– لغويا – في دلالة لفظة "السجن"، فإننا نجد ارتباطها بمفهوم حبس الإنسان وتقييده بين جدران، فالسجن هو الحبس[6]، والذي هو مؤسسة عقابية تديرها الدولة لحبس المذنبين الذين يُحكَم عليهم بعقوبات بعينها[7].

2.1.السجن والحرية:

تتمثل عقوبة السجن في الحرمان من الحرية[8]، ومنع السجين من ممارسة حياته الطبيعية، وإبقائه معتقلا خلف جدران أربعة، منعزلا عن محبيه وأقربائه، وتلك عقوبة تقررها السلطة، التي هي:

[6].جمال الدين بن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، مج2، ج21، ص1947.وأيضا: مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط4، 2004م، ص418

[7].د.مصلح الصالح، الشامل: قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية، دار عالم الكتب، الرياض، ط1، 1420هـ، 1999م، ص416.

"المرجع الأعلى المسلَّم له بالنفوذ، أو الهيئة الاجتماعية القادرة على فرض إرادتها على إرادات الآخرين، بحيث تعترف الهيئات الأخرى لها بالقيادة والفصل وبقدرتها وبحقها في المحاكمة وإنزال العقوبات. وبكل ما يضفي عليها الشرعية ويوجب الاحترام لاعتباراتها والالتزام بقراراتها. وتمثل الدولة السلطة التي لا تعلوها سلطة في الكيان السياسي. ويتجسد ذلك من خلال امتلاك الدولة لسمة السيادة، لأنها مصدر القانون في المجتمع. وبالإمكان تعريف السياسة على أنها علم السلطة[9].وكل هذا يرتبط بالجانب العقوبي الذي يحتمه المجتمع وسلطاته، ضد من يتجاوز أو يخرج عن المنظومة القانونية، ويهدد السلم والأمان والعدالة. أيضا، فإن وجود السجون يرتبط بوجود سلطة ما، لها القوة والمقدرة على الفعل.

والسلطة – كمفهوم – تشكّل كيانا سياسيا ما، له فكره ومصالحه ومعارضوه. وإن كانت العدالة القانونية تتحقق باستقلال السلطة القضائية، ويخضع لها الجميع، وهو ما يسمى في أدبيات السياسة "الدولة القانونية"، والتي تعني: خضوع الحاكم والمحكوم لقواعد قانونية معروفة سلفا، وبذلك تتحدد مراكزهم القانونية على نحو واضح، وتكون السيادة والكلمة العليا في المجتمع للقانون وليس لإرادة الحاكم[10].

فعقوبة السجن مرتبطة بجرم ما، يقع فيه الفرد، ويستوجب عليه السجن، إذا صدرت ضده عقوبة بعد محاكمة عادلة، بأسانيد قانونية تحقق العدالة.

وهذا من موجبات دخول الناس في طاعة أي سلطة ما، فهم يتنازلون عن جزء من حرياتهم، ويسمحون للسلطة بالتحكم في نواحي حياتهم، وتوجيه طاقاتهم وجهودهم إلى أهداف معينة، في مقابل أن تقدم السلطة لهم الأمن والعدل، وتحاكم المجرمين، وتواجه الظالمين والفاسدين؛ الأمر الذي

---

[8]. ميشيل فوكو، المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن، ترجمة: د.علي مقلد، منشورات مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990م،ص 258.

[9]. قاموس المصطلحات السياسية، منشورات: معهد البحرين للتنمية السياسية، المنامة، 2014م، ص41.

[10]. د. أحمد زكي بدوي، معجم المصطلحات السياسية والدولية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، 1989م، ص82.

يجعل السلطة نظاما اجتماعيا عبارة عن نسق من العلاقات بين السادة (الحكام)، والمسودين (الشعب)، وفيه الكثير من أوجه التعاون، كما يحتوي أيضا على التنافس[11].

وهو ما لا نجده في الدول والأنظمة ذات النزعة التسلطية، أو النظم الدكتاتورية الشمولية، التي تصبح المؤسسات فيها أدوات في خدمة الحاكم، ويصبح كل رأي معارض مدانا. فالحكم الشمولي Totalitarianism هو: أحد أشكال الحكم المبني على إخضاع الفرد للدولة، وعلى السيطرة الصارمة على جميع مظاهر حياة الأمة وطاقاتها المنتجة، وبافتراضات إيديولوجية تحكمية معينة تفرض على الشعب، تعلنها الزعامة في جو من الإجماع المفروض بالإكراه على السكان كافة. وكان هذا يطلق على التنظيم النازي والفاشستي[12].

2.2.الجسد والسلطة:

في تأويل علاقة الجسد بالسلطة، يربط كثير من المفكرين بين بقاء الجسد السياسي المتمثل في الحاكم المستبد، وبين استمراره، حيث يؤكدون على أولوية الحاكم على الأفراد المواطنين، ليصبح الحاكم هو أهم ما في الدولة، أما المواطنون فليسوا سوى أعضاء في هذا الجسد الحاكم، وهي الرؤية التي نجدها جليةً في الدول الشمولية الديكتاتورية حيث تعتمد على إظهار الرؤساء في أفضل حالة صحية، وتنظر الشعوب في هذه الحالة إلى الرئيس كأنه مخلصها الوحيد في ظل غياب الطابع المؤسساتي لإيجاد حاكم جديد بديل. بل إن الشعوب تكتسب ثقتها بنفسها ومستقبلها من خلال قائدها ومن صحته ومظهره العام، لذا فإن الحاشية تلمّع القائد بشكل دائم، ويتم التأثير على الجماهير من خلال لغة الصورة، لتتحول الدولة إلى مشهد متلفز، وتصبح أجساد القادة أمرا في غاية الأهمية سياسيا. وإن كان هذا الأمر موجود أيضا في النظم الديمقراطية، وشتان الفرق بينهما[13].

[11]. السابق، ص336.

[12]. السابق، ص439.

[13]. مريم وحيد، الجسد والسياسة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2015م، ص86، 87.

وينصرف الأمر بالتالي إلى علاقة السلطة الجسدية مع الشعب والمعارضة، فالشعب الذي يخرج في كتل متراصة تهتف بحياة الزعيم، أو يصطف على جانبي الطريق لتحية الزعيم عند سفره أو عودته؛ هو شعب متلاحم – في نظر السلطة – مع قيادته، أما المعارضون فهم فئة خارجة على قوى الشعب العاملة والمتلاحمة، يستوجب تغييبهم جسديا عن الشارع والمشهد أو عن الحياة برمتها.

فلا عجب أن نجد ارتباطا واضحا بين الاعتقالات الظالمة، وسيادة الحكم الشمولي الدكتاتوري، فالعلاقة بينهما مترابطة، فحيثما وجِدَ الاستبداد، وجَدَ الظلم والقهر والسجن دون جريرة. لأن السلطة المطلقة مفسدة مطلقة، لا تنصت لمن يعارضها، وإنما تستشير من يؤيدها، ويسير وفق هواها، وفي المقابل فإن كل معارضة – ولو كانت يسيرة أو هادئة – متهَمة، ومعرض صاحبها للاعتقال.

وعند غياب الزعيم جسديا بالموت، فإن الشعب يصبح في حالة ضياع، فقد دأب على بقاء الزعيم، وأن الزعيم رمز لاستقرار الوطن وعلامة على الأمن، وهذا ناتج عن سنوات طوال، أمضاها الشعب مستمعا للإذاعات، ومشاهدا للتلفازات، وأخبار الزعيم وأنشطته وبرقياته واستقبالاته هي الأخبار الأولى بامتياز.

ويستمر تعلق الناس بالزعيم نفسيا بعد رحيله، خاصة في ضوء عدم وجود وريث محتمل، فيتباكون على أيامه، وهم يشاهدون الصراعات في رأس السلطة، ويظنون أن وجود الزعيم – ولو كان مريضا مقعدا – أفضل من غيابه، وتركه الأمورَ نهبًا للصراعات. ذلك أسّ البلاء، عندما يذوب الشعب (التابع الجاهل المغيب) في شخص الزعيم وجسده، ولا يرى بديلا سواه، ولا يزال بين ظهرانينا، من يترحم على أيام الدكتاتوريين (في ليبيا والعراق ومصر واليمن وسورية والصومال)، بعدما رأوا الأوطان تعاني أزمات، ويغيب عنها الأمن، وتصبح نهبا للتقاتل على السلطة.

وإذا نظرنا إلى المثقفين/ الدعاة/ التنويريين من زاوية الجسد، فإنهم إما متواجدون في الإعلام السلطوي بأجسادهم صورا وأقوالا، وهذا يعني أنهم جزء من السلطة، ولأن الشعب لا يجد غيرهم،

فلا يسع العامة منهم إلا تصديقهم؛ وإما هم مغيبون في المعتقلات أو المنافي أو منبوذون داخل الوطن، مما يعني أنهم عند ظهورهم لن يستسيغ الشعب أو يتقبل كلامهم، فيتعين عليهم بناء وجودهم من جديد.

2.3.نواتج الاستبداد:

تتمثل محصلة الاستبداد –عندما يعلو صوت واحد، ويتوحّد الشعب خلف قيادة مستبدة، ويَغيب أوً يُغيَّب الرأي الآخر–؛ أن تتتابع الهزائم، وتتالى النكبات، وتلك مسلَّمة أخرى، وفي التاريخ القريب والبعيد عشرات الشواهد على ذلك. وبعبارة أخرى فأينما تولّت السلطة المستبدة، جلبت الهزائم على أمتها. والعكس قائم وصحيح، إذا كان هناك حكم صالح عادل راشد؛ قويت الأمة وعظم شأنها وساد شعبها.

وللأسف فإن الأنظمة الدكتاتورية لا تتعظ من التاريخ، فالاستبداد قديم قدم السلطة ذاتها، وتوابعه أيضا وآثاره السلبية لها نفس القدم الزمني، فالاستبداد يفترض أن إسكات المعارضة سبيل للحفاظ على هيبة الحكم، واستمراره، وأن سياسة القوة وحدها كفيلة بإنجاح السلطان، ونشر الأمان.

وهو ما يعارضه الواقع والتاريخ والمنطق والحقيقة، ويؤكده أيضا المؤرخ الكبير عبد الرحمن بن خلدون منذ ما يزيد عن ستة قرون (ت 808 هـ / 1406م) وهو يقرأ متأملا حقيقة الأمم الناهضة قديما، وكيف أن العدل ملازم للملك، بل إن الملك القوي أساسه العدل والحريات. يقول في ذلك: "اعلم أن مصلحة الرعية في السلطان ليست في ذاته أو جسمه من حسن شكله، أو ملاحة وجهه، أو عظم جثمانه، أو اتساع علمه، أو جودة خطه، أو ثقوب ذهنه. إنما مصلحتهم فيه من حيث إضافته لهم، فإن الملك والسلطان من الأمور الإضافية. وهي نسبة بين منتسبين، فحقيقة السلطان من له رعية، والرعية من لها سلطان، والصفة من حيث إضافته إليهم هي التي تسمى الملكة، وهي كونه يملكهم. فإذا كانت هذه الملكة بمكان من الجودة، حصل المقصود من

السلطان على أتم الوجوه. فإنها إن كانت جميلة صالحة، كان ذلك مصلحة لهم، وإن كانت سيئة متعسفة، كان ذلك ضررا عليهم وهلاكا لهم"[14].

تأتي كلمات ابن خلدون واصفةً أحوال الملك العادل، مستشعرة أحاسيس الرعية نحو من يحكمها، فليست العبرة بمن يرفع شعارات حماسية، أو يخدع الجماهير بإعلام أحادي الرأي والتوجيه، وإنما بمَن يقدّم الخدمات والرعاية والحماية لهم، وهو مأ أسماه الإضافة لهم، وجعل ذلك من موجبات الملكة، وإلا كان المقابل لفقدان الإضافة هو الضرر والهلاك، وتلك نتيجة من أفسد وظلم.

ويضيف ابن خلدون أوجها من سمات المَلَكة: "ويعود حسن الملكة إلى الرّفق، فإن الملك إذا كان قاهرا، باطشا بالعقوبات، منقبا عن عورات الناس، وتعديد ذنوبهم؛ شملهم الخوف والذل. ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة، فتخلّقوا بها، وفسدت بصائرهم وأخلاقهم، وربما خذلوه في مواطن الحرب والمدافعات، ففسدت الحماية بفساد النيات، وربما أجمعوا قتله لذلك، فتفسد الدولة، ويخرب السياج.. ففسدُ السياج من أصله بالعجز عن الحماية. وإذا كان رفيقا بهم، متجاوزا عن سيئاتهم استناموا إليه، ولاذوا به، وأشربوا محبته، واستماتوا دونه في محاربة أعدائه، فاستقام الأمر من كل جانب"[15].

إن سيادة الخوف والذل تؤدي إلى غلبة الكذب والمكر والخديعة، وإفساد البصائر والأخلاق، وتلك سلوكيات إن شاعت في الشعب فلا نتوقع منهم ثباتا في حرب أو مدافعة لعدو، فالجبان لن يحارب من أجل وطن لا يأمن فيه، مثلما أن الذليل الخائف يفتقد الشجاعة في مواجهة العدو، لأنه تعود الخنوع أمام القهر.

[14]. عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تحقيق: د.عبد السلام الشدادي، منشورات خزانة ابن خلدون، بيت الفنون والعلوم والآداب، الدار البيضاء، المملكة المغربية، ط1، 2005م، ج3، ص323.

[15]. المرجع السابق، ج3، ص323، 324.

وهو ما تؤكده الأدبيات السياسية، حيث تشير إلى أن الغاية النهائية للطاغية – كي يحتفظ بعرشه / سلطته– هي تدمير روح المواطنين، وزرع الشك وانعدام الثقة فيما بينهم، وجعلهم عاجزين عن قول أي شيء أو فعل أي شيء، كذلك تعويد الناس الخسة والضعة، والعيش بلا كرامة، فيعتادون الهوان. كما يسعى للقضاء على البارزين من الرجال، وأصحاب العقول الناضجة[16]،فلا يبدعون ولا يتميزون.

وتلك الغاية يمارسها الطغاة مجبورين عليها، فليس أمامهم خيارات أخرى، لأنهم ارتقوا للسلطة دون شرعية من الرعية، وقد خلّفوا وراءهم أنهارا من الدماء، وأرتالا من المظالم، وأضحى له ثأر مع كل من ظلمهم، فإذا سار خفف من قبضته الأمنية، فإن آلاف الرؤوس ستشرئب متطلعة ومتجرّئة، تجاهر بمظلوميتها، وقد تشتد وتتعاظم فتصبح حركات شعبية واحتجاجية، تطيح بخيمة الحكم وأوتادها، وساعة الانفجار تكون رأس الطاغية مستهدفة، ويتخلى عنه تابعوه ومنافقوه.

2.4.فيلم شيء من الخوف نموذجا:

في فيلم "شيء من الخوف"([17]) نموذج، فقد حكم الجد "عتريس" قرية الدهاشنة بالحديد والنار، وقد قتل الجد على يد أحد أبناء القرية، انتقاما لإهانة عتريس لوالد هذا الرجل، وعندما تولى الحفيد "عتريس" أيضا، الذي حمل نفس الاسم والوسم لجده، في دلالة مؤكدة إلى استمرار نهج الطاغية عبر توريثه للسلطة لذريته. تجبر الحفيد عتريس، وقتل وحرق، ووقفت أمامه الفتاة "فؤادة" رامزة لعزة الوطن وكرامته، حتى انتفضت القرية كلها، بعد مقتل ابن الشيخ إبراهيم الوحيد، وحاصروا منزل

[16]. د. إمام عبد الفتاح إمام، الطاغية: دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1994م، ص120 .

[17].من إنتاج العام 1969، ومن إخراج حسين كمال، وهو مأخوذ عن رواية بنفس العنوان للروائي: ثروت أباظة،، سيناريو: صبري عزت، حوار: عبد الرحمن الأبنودي، بطولة: شادية، محمود مرسي، يحيي شاهين وآخرون.

عتريس، فهرب أتباعه، وحبسه ساعده الأيمن في الغرفة، التي انهالت عليها كرات النار، ليموت محترقا بعد ثورة شعبية كاسحة.

اختصر الفيلم ورمز لكل شيء في الحكم الديكتاتوري، وأكّد على أن ساعة الانفجار غير محسوبة، ولا يمكن التنبؤ بها، بل لا يمكن الاستعداد لها، فغالبا ما تأتي في لحظة يظن الطاغية أن الكل خاضع له، ليكتشف أن الجماجم التي داسها وتفتت؛ صارت رمالا متحركة أغرقته، ولم تجف دماء الضحايا، بل كانت وقودا أشعل القلوب حقدا مضمرا، حتى إذا حانت اللحظة صارت نيرانا حارقة.

على جانب آخر، وعندما نقرأ الفيلم في سياقه الزمني والسياسي، نجد أنه يعبر عن انتكاسة المشروع الناصري، والذي جاء في بدايات مرحلة ما بعد الاستعمارية في أول الخمسينيات، حين قامت الدولة القومية – المحرَّرة حديثا – على مبادئ العدالة الاجتماعية والمساواة بين الجنسين والانتماء الفعّال لسياق إقليمي أوسع، هو العالم العربي. إلا أن إمكانية تأسيس مثل تلك الدولة القومية اعتمدت على جهاز أمني لا يعرف الهوادة، جهاز أسكت الأصوات المعارضة من خلال الاعتقال والتعذيب، وفرض رؤية سياسية أحادية على الإعلام والرأي العام. وكان تأميم السينما المصرية في الخمسينات أحد الأمثلة على كيفية تخلل رواية الدولة في مختلف أشكال الإنتاج الفني لصالح المزيد من ترويج رؤية عبد الناصر لدولة قومية جديدة ثم جاءت هزيمة يونيو 1967م لتعطل كل ذلك، حيث ولّدت الهزيمة شعورًا جمعيًا بخيبة الأمل في المشروع الناصري، الذي جرى الترويج له باعتباره حلمًا[18].

[18]. روان الشيمي، جواهر السينما المصرية: شيء من الخوف، ترجمة: عايدة سيف الدولة، موقع مدى مصر للسينما. https://www.madamasr.com/ar/2017/06/05

وبعيدا عن المتخيل السينمائي والروائي؛ سنجد في الواقع المعيش أمثلة تغنينا بكثرتها في الماضي والحاضر، عن أية خيالات فنية، وكلها تثبت بجلاء أن من انتصر هم أصحاب الحريات، الحافظين كرامة الإنسان.

كما أن القضية لا تتمثل – كما يتصورها البعض – في توفير فرص العمل، أو تسهيل العيش، ونشر الأمن والأمان بتدعيم جهاز الشرطة؛ وإنما الحياة في عزة لكل الناس، فلا تستأثر ولا تستأسد طبقة على طبقة، ولا ينال أصحاب السلطة والحظوة مكانة يعتلون بها على رؤوس الناس.

3. الاستبداد والعقاب:

في العصر الحديث، وفي أوروبا تحديدا، وبدءا من النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومع تصاعد نزعة الأنسنة؛ حدث تطور في أشكال العقوبات، فقد تمت إزالة العقوبات الجسدية، بتغييرات كبرى على صعيد نظم الحكم ذاتها، فتجاوزت التعذيب الجسدي للفرد: الجسم المعذب، المعتقل بدون جرم، المقطوع، المبتور، الموسوم رمزيا في الوجه أو الكتف، المعروض حيا أو ميتا، في مقابل أشكال أخرى من الألم أكثر رهافة وأكثر تبطينا، ومعراة من الآثار الملموسة؛ أساسها نشر الإحساس بالخزي والعار لمن يتم ثبات الجرم عليه، في ضوء المحاكمات العلنية، وحرية الرأي، فمن المستقبح أن يكون الإنسان أهلا للقصاص. ومن غير المشرَّف له أن يعاقب عقوبة جسدية مؤلمة؛ فيكفيه حبسُ حريته في السجن، بعد محاكمة نزيهة يشهدها القاصي والداني، ووضع بدائل أخرى، منها النفي والأشغال الشاقة المؤبدة ومنع الإقامة والإبعاد، وكلها آلام غير جسدية، وإنما معنوية، ويتوجب إصلاح وإعادة تأهيل السجناء، من قبل مختصي علم النفس[19].وقد تطور مفهوم التقاضي

[19]. المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن، ص51- 54.

في حد ذاته، عبر منظومة آلية تحقق ثلاثة أمور: معرفة المخالفة، معرفة المسؤول عنها، معرفة القانون، ومن ثم تتم المحاكمة النزيهة مع كفالة حقوق المتهم، ثم حقوقه إذا نال عقوبة السجن[20].

لقد جاء هذا التطور الهائل في أوروبا، بعد قرون طويلة من العقوبات المشددة نحو السجناء، تبدأ بالمقصلة، تمر بالسياط والكي بالنار، وتنتهي بالبتر للأعضاء.

3.1.عقوبات السجين وحقوقه:

يرصد "ميشيل فوكو" بنائية هندسية ضخمة محاطة بالسرية الإدارية، في منظومة العقوبات والقيود التي تلاحق السجين منذ القدم، وأولها سلسلة القيود، والتي تعود إلى تراث بحري، عندما كانوا يربطون أرجل العبيد بالسلاسل، ليقوموا بالتجديف قبل عهد البخار، ولا تفك قيودهم إلا عند موتهم، ويغرقون مع السفينة عندما تُغرَق. وانتقلت إلى السجون في أوروبا، لتشمل جميع أشكال العقوبات، وتتنوع القيود وربط الأجساد في سلاسل، وصولا إلى عملية الإعدام ذاتها [21].

يقع كل هذا على عاتق الدولة / النظام / الحكومات، وعليه فقد اعتمدت الفكرة المحورية لحقوق الإنسان على أن الدول مسؤولة عن الوفاء بشروط معينة عند تعاملها مع شعوبها، وإن وقعت حالات فشل – وهي متوقعة وفعلية – تكون دافعا للعمل العلاجي أو الوقائي، والتي اكتسبت زخما كبيرا، لأنها باتت تعتمد على مفهوم مفاده أن انتهاك حقوق الإنسان داخل الدولة يهدد الأمن والسلم الدوليين. وتحضر هنا حالة ألمانيا النازية حيث سادت إيديولوجيا التفوق العرقي، التي عمد جهاز الدولة القمعي إلى نشرها وفرضها على الشعب الألماني، مما جعله يرى نفسه فوق شعوب الأرض، ويستبيح بالتالي احتلالها وحكمها والسيطرة على مواردها. لذا جاءت فلسفة حقوق

[20]. السابق، ص59.

[21]. السابق، ص258.يسجل فوكو مشاهد واسعة لأشكال العقوبات والقيود الحديدية الموجهة نحو السجناء، وما يحدث للأجساد من تمزق واهتراء مع ربطها في القيود، والطقوس المصاحبة للإعدام والبتر، والشتائم والألفاظ التي تقال، ومشاهدة العامة لها.ص259-262.

الإنسان معتمدة على أنها حقوق منحها الخالق للناس، وأنها حقوق طبيعية ومقدسة لكل إنسان، وهو ما عززته الأديان والقيم الإنسانية[22].

وهو ما تم التعبير عنه في الفلسفة السياسية بنظرية: الحقوق الطبيعية التي تؤكد أن الناس يُخْلَقون متساوين، وأن الحكومات تستمد سلطاتها المشروعة من رضاء المحكومين عليها. وعمّقته بعد ذلك الفلسفة الليبرالية عندما أكدت على أن العلاقات بين الناس / الشعب هي علاقات أخلاقية غير قابلة للاختزال، وأن البشر في المجتمع كائنات بينهم علاقات متبادلة، أساسها الحقوق والواجبات، بضبط النفس من كلا الطرفين، وبتصميم كلا الطرفين على حماية الحقوق والواجبات، وأن الاختلاف يتم حله بالنقاش والتفاوض والادعاءات والمقترحات والتعديل والتسوية وسائر الوسائل السلمية المتوافق عليها، وتقوم مؤسسات المجتمع بتهيئة البيئة لتلاقي الأفكار والجهود والحوار [23].

وقد أشارت أدبيات حقوق الإنسان إلى أهمية نشر ثقافة التسامح وقبول الآخر في المجتمعات الإنسانية، تلك التي تخضع لحكم يتسق مع فهم شامل وواسع النطاق ومشترك بشأن الحق والعدل السياسيينِ، والذي يجسّد فكرة الخير المشترك. وتضم مؤسسات تمكن أفرادها من المشاركة في سن القوانين وتهيئة الفرص لاختلاف الرأي، وتحقق المساواة السياسية، وتهيئ السبل لتمثيل المواطنين كأعضاء في جماعات وليس كأفراد، ويمكن أن تشترك هذه الجماعات في الحياة السياسية بوصفها وكالات استشارية، وقد تكون قوى ضاغطة صاحبة نفوذ وتأثير[24].

---

[22]. تشارلز آر.بيتز، فكرة حقوق الإنسان، ترجمة: شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،2015م، الصفحات: 23، 32، 33.

[23]. جورج سباين، تطور الفكر السياسي، (الكتاب الرابع) ترجمة: علي إبراهيم السيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د ت، ص249، 250.

[24]) ميشيل فوكو، المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن، ص166، 167.

أما عن عالمنا العربي والإسلامي، فإن حقوق الإنسان متجذرة في المصادر الأساسية لثقافتنا، وهناك تراكم علمي ومعرفي يؤصّل لحقوق الإنسان في الإسلام في كلياته الخمس، التي تشمل حفظ: الدين والنفس والعقل والمال والنسل، كما أن الحرية الفردية مترسخة في التقاليد العربية المتوارثة، التي كانت تعلي من شأن حرية الفرد، وترسخ الشورى ثم البيعة كنظام في اختيار شيخ القبيلة، ثم اختيار الخلفاء.

وقد جاء التأصيل الإسلامي المعاصر لحقوق الإنسان انطلاقا من تراثنا في السياسة الشرعية قديما؛ كي لا تقتصر مرجعيته على الثقافة الغربية وحدها؛ وأملا في إدراك النظم الحاكمة أن حقوق الإنسان ليست منّة من الحاكم يوهبها لشعبه، وإنما هي جزء أصيل من موروثات الشعوب العربية والإسلامية الثقافية والحضارية.

فحقوق الإنسان وفق التأصيل الإسلامي لها ضرورات إنسانية فردية واجتماعية، يأثم الفرد والمجتمع إذا فرطوا فيها، لأنها السبيل الوحيد للتمتع بالحياة، بل هي المعنى الحقيقي للحياة، والعدوان عليها هو عدوان على جوهر الإنسانية، بل إن الإيمان وتحقيق التدين يتوقفان عليها[25].وقد تضمنت الاجتهادات المعاصرة في هذا المجال خمس ضرورات تكفل تحقيق حقوق الإنسان لدى الفكر والممارسة السياسية المعاصرة وهي ضرورة: الحرية، الشورى، العلم، العدل، الاشتغال بالأمور العامة، المعارضة السلمية المنظمة[26].

وبذلك، يكون هناك اتساق بين الأصالة والمعاصرة في هذه القضية، ومنعا من شبهات "علماء السوء، وفقهاء السلاطين" الذين يقفون عند ظواهر النصوص التي توهم الأمة والعامة بوجوب السمع والطاعة فقط، والتي تعني ضمنيا صدّ الأمة عن النهوض بالفرائض الواجبة والضرورات

[25]) د.محمد عمارة، الإسلام وحقوق الإنسان، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1985م، ص15.

[26]) انظر تفصيلا: المرجع السابق، فصول متعددة في الكتاب تغطي هذه المحاور.

الشرعية، والسماح بالمعارضة السلمية عبر قنواتها الشرعية المباحة. وقد توصّل الاجتهاد الفقهي المعاصر في هذه القضية إلى وضع آليات المعارضة والرأي الآخر ضمن موجبات السياسة الشرعية، وفي مرتبة "الضرورة الواجبة شرعا" على مجموع الأمة، كما هو الحال مع الضرورات الشرعية الأخرى، لتصبح حقوق الإنسان واجبة على ولي الأمر وجماهير الأمة ونخبتها على السواء وليست مجرد حقوق كما هي في الحضارة المعاصرة، ومن ثم يصبح التقصير عن القيام بها إثما مجرّما على كل مسؤول وعالم مناطة به[27].

3.2.السلطة وحقوق الإنسان:

من المفارقات اللافتة، أنه مع هذا الاجتهاد العلمي لتأسيس منظومات لحماية حقوق الإنسان، ودمجه في الفكر السياسي والقانوني المعاصر، المؤسس على الليبرالية والديمقراطية واحترام حريات الفرد والجماعة، واعتبار الإنسان محورا للنهضة والتنمية؛ إلا أننا نجد في المقابل نظما سياسية تتخذ من الاستبداد والقهر والتسلط سبلا لبقائها وإمساكها بالسلطة، لينقسم العالم إلى قسمين: دول تعلي الإنسان كقيمة وتعزز حرياته، وأخرى اتخذت من الشمولية والاستبداد سبلا لبقائها، متغنية بشعارات سياسية وأمنية وتنموية، هي أبعد عن الواقع المعيش لشعوبها.

تُنعَتُ هذه النظم في الاصطلاح السياسي بأنها مجتمعات "لا تعرف القانون"، أي مارقة، لا هي ليبرالية، ولا هي مهذبة (أي لا تمتلك قيما إنسانية سامية)، بل إن شعوبها تفتقد العقل الجمعي المنتصر لحقوق الإنسان في مواثيقها الدولية. وتكون مؤسساتها القائمة عاجزة عن حماية حقوق الإنسان لدى الشعب أو الدفاع عنه[28].

---

[27]. السابق، ص118.

[28]. تشارلز آر، فكرة حقوق الإنسان، ص109.

وفي هذه الحالة، يصعب إلقاء اللوم على الشعوب وحدها، خاصة إذا كانت فقيرة؛ لأنها مغلوبة على أمرها، تعاني شظف العيش، ويجاهد أبناؤها من أجل استمرار الحياة لهم، فتكون المسؤولية واقعة على عاتق الحكومات والأنظمة، التي تأمن في كراسيها، مادام الشعب مهموما بما يلهيه عن حقوقه السياسية والإنسانية، وقد نجد دولا تخالف القاعدة، فيعيش أهلها في بحبوحة من العيش الرغيد، ولكن الشعب يفتقد للمشاركة السياسية، وحريات الرأي والإعلام، وهذا واقع بالفعل، وفي هذه الحالة يمكن نعت الأنظمة بأنها اكتفت بإرضاء شعبها ماديا، لتعيش – الأنظمة – في مأمن من أية انتفاضات أو معارضة، ومن ثم تتفنن في إلهاء الناس.

إذن، القهر ملازم لكل مستبد متسلط، وله سمات عديدة تكاد تكون متشابهة عبر حقب التاريخ، واختلاف المجتمعات من حيث المستوى الحضاري، فالحاكم المستبد يصل إلى الحكم بطريق غير مشروع، فقد يكون مغتصبًا للحكم بالمؤامرات أو الاغتيالات أو القهر أو الغلبة بطريقة ما. لذا، فهو لا يعترف بالقانون، بل تصبح إرادته هي القانون، وما يقوله واجب التنفيذ، وما على المحكومين إلا السمع والطاعة، لأنهم يعلمون جيدا أنه لا حق لهم في المحاسبة أو المساءلة أو الرقابة، فالحكومة المستبدة تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء. والغريب أن الحاكم المستبد يسخر موارد البلاد لإشباع رغباته ونزواته التي تكون في الغالب حسية، وقد تكون في التوسع والاستيلاء على البلدان الأخرى؛ مزيدا من الإشباع لمتعته في السيطرة والتحكم واستغلال الشعوب وتوسيع ملكه. وهو شكل من الحاكم الاستبدادي يسمى اصطلاحا "السيد الأوحد" أو "الحكم الفردي" وفيه لا يكترث الحاكم إلا بمصلحته الشخصية، ويستمر بالإكراه لمواطنيه[29].

3.3.التنظير السياسي للاستبداد:

[29].الطاغية، ص42، 43، وانظر أيضا ص 116.

عززت النظم الشمولية– التي اتخذت الدكتاتورية سبيلا لها– مرجعيتها السياسية بالفكر القومي الاشتراكي، وقد أبانت التجربة السياسية – لما طبق في هذه البلدان – وجودَ حالة من الديماجوجية الفكرية والسياسية، التي ارتبطت بحالة من الشوفينية والعنصرية، أسفرت عن نظم حكم مستبدة، وشعارات عالية، أبرز ما فيها ترسيخ فكرة الاستعلاء العنصري، وزرع الكراهية بين الشعب المحكوم وغيره من الشعوب، فيما يسمى مشروع جمع الكراهيات المشتركة، والتي تلاقت مثلا بين: ألمانيا وإيطاليا ثم اليابان، والدول الثلاث شكلت دول المحور في الحرب العالمية الثانية، وكم كانت المآلات شديدة الدموية، شملت التضحية بملايين البشر، وتحطيم هذه الدول. والشاهد هنا، وجود مجموعة من المثقفين والمفكرين الذين أسبغوا على هذه النظم النعوت، ووضعوا تنظيرات لها، والمثال الحاضر في إيطاليا، في تجربة الحزب الفاشي (الاشتراكي الوطني) بقيادة موسوليني، والذي وضع خمسا وعشرين مادة عام 1926م، غير قابلة للتغيير إلى الأبد، أي في مرتبة مقدسة، وتم إعداد تزويد الفاشية بمذهبية سياسية خلال شهرين، عام 1929م، فامتزجت بالاشتراكية، ودارت آلات الدعاية تغني بها، لتصبح أمثلة كئيبة على حالة من الهستيريا التي طردت الذكاء والأخلاقية لدى نفوس الشعب، عبر عزفها المستمر على الروح الوطنية، وهو نفس ما فعله هتلر في كتابه الشهير "كفاحي"، ومزجه أيضا بقومية الجنس الآري والاشتراكية[30].

وهو الملاحظ في الأنظمة القمعية في العالم العربي، ولنا أمثلة كثيرة نجدها فيما نشر بعد سقوط عدد من الطغاة، وما تسرب عن حياتهم الخاصة وفسادهم وفساد أبنائهم وأقاربهم والطبقة السياسية المؤيدة لهم، وما فعلوه بشعوبهم ومعارضيهم. والتي تبدأ بتولية أهل الثقة والقربى المناصب العليا، مع إخضاعهم بمعرفة عوراتهم، فيما يسمى بـ"تولي الخصيان"، حيث تسند المناصب الثلاث العليا التي

[30]. جورج سباين، تطور الفكر السياسي (الكتاب الخامس)، ترجمة: د.راشد البراوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د ت، ص171، 172.

تلي السلطان / الملك إلى رجال مخصيين، ليظلوا في حالة من الإذلال والانكسار النفسي أمام السلطان. وقد تطورت النظرية ليصبح المخصي شخصيا ضعيف الأصل أو من أقلية منبوذة ساقطة اجتماعيا، ليظل خادما مطيعا لمن عيّنه.

ويتم اختيار بقية الشخصيات القيادية على نفس المنوال، ليظلوا في حالة من الخوف والإذعان للمستبد، مع فقدانهم للكفاءة اللازمة، ويتخلص في المقابل من أي شخص كفاءة كان قد دعمه يوما ما، كي لا يكتسب أي مساحة أو حضور جماهيري، يمكن أن يكون منافسا على الكعكة. فالعبرة هنا بنظرية: الولاء ثم الولاء ثم الولاء"، وهو خط واحد لدى كل المستبدين مثل: فيدل كاسترو (كوبا)، صدام حسين (العراق)، عيدي أمين (أوغندا)، فيختارون أشخاصا بعينهم، سيقومون بمهمة مصلحة النظام التي تعني شيئا واحدا: كل ما هو خير للحاكم، وسيتولون أيضا القضاء على كل المنافسين المحتملين في الدرجات الدنيا من المناصب، فهم عين الحاكم المراقِبة، كي يتم بتر كل طموح مستقبلي؛ ليس في منصب الحاكم فقط، وإنما في أي منصب عال آخر. أما عن الإغداق المالي والعطايا والنهب والفساد الذي تمارسه الحاشية، فحدّث ولا حرج[31]، فهذا من موجبات الاستبداد وعلاماته، ومن فنون الحكم البغيض.

ومع اشتداد الاستبداد، تصبح النتيجة النهائية: جملة من التحالفات: تحالف الفساد والسلطة، تحالف السلطة والأثرياء الداعمين لها والمستفيدين منها، تحالف المؤسسات الأمنية والعسكرية والسلطة للمزايا المتحققة للأولى، وما تقوم به من دعم كامل للحاكم والحفاظ على عرشه من قوى الشعب الجائعة / الثائرة.

أيضا، سنلاحظ وجود دائرة مغلقة تتمثل في أن: "الروابط السببية التي تؤدي إلى الفساد؛ هي أن السلطة تدفع إلى الفساد؛ والفساد يؤدي إلى السلطة؛ والفساد يعمل على تمكين القادة.

[31]. بروس بيونو دو مسقيتا، ألستير سميث، انظر تفصيلا بالأمثلة: دليل الاستبداد والمستبدين: الفساد سبيلا للاستيلاء على السلطة والحفاظ عليها، ترجمة: د.فاطمة نصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2014، ص58 – 81.

وتتحقق مقولة اللود آكتون: السلطة مفسدة، والسلطة المطلقة مفسدة مطلقة"[32]، والعجيب في الأمر أنه لا يوجد مستبد يتمتع بالسلطة المطلقة، فهو في حاجة إلى ائتلاف يؤازره، ويحتاج أعضاء الائتلاف إلى فرص للإثراء إن هم ظلوا موالين لحاكمهم، ويمكنونه للبقاء في السلطة[33]، لتتعزز نظرية الدائرة المغلقة الممثلة في الحاكم والائتلاف المؤازر له، التي تعني تولي الخصيان، وتعلقهم بوليّ نعمتهم، وكاتم أسرارهم.

4.المثقف والطاغية والسجن:

مع الاستبداد، تنشأ المعارضة، التي إن لم تجد مسارات سلمية لها في المجتمع، ولم يستوعبها النظام الحاكم، فإنها تلجأ لمسارات أخرى، إما سلمية فردية زاعقة، كانت أو خافتة، أو بالعمل المسلح ضد السلطة في دوامة العنف والعنف المضاد، في حين تواجه السلطة نشاطات الأفراد المعارضين من خلال الاعتقال السياسي والذي يعني حبس المثقفين والسياسيين ودعاة الإصلاح، لتتلقفهم السجون أو يتم نفيهم أو تغييبهم وحظر حركتهم بالقهر المعنوي والتخويف والإذلال.

4.1.الطاغية والمثقف:

يحرص الطغاة ومن والاهم من سلطات على اتخاذ تدابير متعددة، تجعل الشعب في حالة من الجهالة المستمرة، وتغييب آراء المعارضة عنهم، كي يظل صوت السلطة هو الأوحد والمسموع في جنبات الوطن. لذا فهي تمنع الأشكال المختلفة للاجتماعات والأندية الفكرية والثقافية، لحجب كل ما يعمل على تنوير النفوس أو يبث الشجاعة والثقة بالنفس، فيصبح المواطن غريبا في وطنه، خائفا

[32]. السابق، ص139.

[33]. السابق، ص140.

ذليلا، وينقطع بالتالي الحبل السري الذي يربط بوطنه، وبالغيورين الصادقين عليه، في ضوء شبكات كبيرة من العيون والجواسيس، مع متملقي السلطة، بل ويعتمدون على إغراء المواطنين كي يشوا عن بعضهم، وإثارة أحقاد الناس، نحو طبقات وفئات المجتمع الأخرى، وتنتشر النميمة ومشاعر الشقاق والفرقة. والأهم أن الطغاة ساعون لإفقار رعاياهم، حتى لا يكلفهم حرسهم (شرطتهم) شيئا ذا بال، وحتى ينشغل المواطنون بالكد على لقمة عيشهم، أو تشغليهم بالسخرة[34].

وتكون المحصلة تواري المثقف – الذي هو خارج المعتقل أو قد خرج منه بالفعل – فيكاد يمّحى أثره، إما بالسير خلف السلطة ونفاقها أو على الأقل الابتعاد عن نقدها، مكتفيا بالإمعان في تخصصه التكنوقراطي، والفرار إلى التنظير النخبوي، الذي ينأى عن الواقع ويجتهد صاحبه ألا يلامسه بمثال أو يقاربه برأي أو يسقط عليه برمز، ويتمحور بالتالي في دائرة تلقي / قراءة ضيقة.

لقد بات من المسلم به في الثقافة العالمية أن الثقافة لها تأثير جماهيري كبير، وهو ما يعني أدوارا أكبر للمثقفين والنخبة الفكرية والسياسية في المجتمع، ومن ثم يكون السؤال: كيف يمارس المثقف دوره ؟ وتتأتى الإجابة بأنه من الخطأ حبس الثقافة داخل صناديق صلبة ومنفصلة بعيدا عن الهويات[35]، والثقافة المجتمعية والواقع الاجتماعي والسياسي المعيش، وتلك الطامة الكبرى، عندما يغرّد المثقف / المفكر/ الداعية / المصلح / النخبوي / الأكاديمي؛ في موضوعات بعيدة عما يعايشه الناس من مشكلات وهموم، خاصة فيما يتعلق بالوضع السياسي. فهناك من المثقفين من هو غارق في تخصصه، لا يمدّ عينيه أبعد من المراجع والكتب والمصطلحات وهذا مأمون العواقب، وخير له أن يظل مكانه، وأن يحدث طلبته بما عنده من مصطلحات وأفكار، بلغة متعالية متخصصة. وهناك – وهذا كثير – من يتحدث عن الحريات وحقوق الإنسان والقانون الدولي، حديثا نظريا، يملأ بها

[34].د. إمام عبد الفتاح إمام، الطاغية، ص121، 122.

[35]. أمارتيا صن، الهوية والعنف: وهم المصير الحتمي، ، ترجمة: سحر توفيق، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2008م، ص109.

أجواء الندوات، ويهدر بها أطنان من الأحبار والأوراق، وهو يعرف جيدا أن القلة القليلة التي تقرأ له، تعلم يقينا أنه كلام لا فائدة منه.

و في رواية "القابضون على الجمر" نجد شخصية مثقفة في زمن الستينيات أيام الحكم الناصري في مصر، توحّد مع السلطة، وحفظ نصوص ميثاق الثورة، وتغنى بها في محاضراته، وعندما تمت الوشاية به من بعض الحاقدين، وجاء زوار الفجر للقبض عليه، ذكر لهم ما يقوله الميثاق بشأن حقوق الإنسان، فرد عليه الضابط: "ميثاق إيه يا بن ال..."[36].فهذا لون من المثقفين، انعزل عن المجتمع، ورضي بالتنظير الذي تصدّره له السلطة، وفي النهاية طحنته السلطة.

4.2.المثقفون ورهانات السلطة:

هناك لون آخر من المثقفين، عرِف جيدا مسالك السلطة، فسلكها، ورضي عن جميع من في السلطة وإن تبدلوا، فتبعهم، وهذا يجيد الكتابة والبحث والكلام، ويبرع أكثر في تسويق شعارات السلطة والتبرير لها، مادام يتنقل من منصب إلى منصب، فإذا وضعوه جانبا بفعل عوامل الزمن والعمر، أو عوامل التعرية له من الوشاة والحاقدين والمنافسين، فهو لا يغير من مواقفه، ويظل يسترجع ذكرياته، ويردد – لعل هناك من يسمع وينقل عنه –: لماذا يأكل الوطن أبناءه المخلصين ؟ ويقصد هنا بالوطن السلطة الحاكمة التي اختزلت الوطن في الزعيم، ويقصد بالمخلصين من كانوا حول الزعيم وهتفوا له، ونظّروا، وروّجوا.

وهناك من المثقفين من يتخبط في الحياة مع عامة الناس، ويفرّ إلى ذاته الخاصة، طلبا للسكينة، وإيثارا للسلامة، وهذا يذكرنا بالأدباء الذين كانوا يكتبون إبداعات سيريالية أو في اللامعقول، يغوصون بها وفيها بحثا عن مكنونات عقلهم الباطن، وما اختزنوه من تعقيدات، السؤال: أهم

[36]. محمد أنور رياض، القابضون على الجمر، منشورات دار البحوث العلمية، الكويت، 1982 م، ص161.

يهربون مما يعايشونه في وعيهم الإرادي بالتعبير إبداعيا عما يعتمل في لاوعيهم غير الإرادي ؟ أم ينتظرون لحظة انقشاع الغمة وزوال دولة القهر، ليكتبوا عن"عودة الوعي"من جديد.

والمصطلح هنا يعود إلى توفيق الحكيم في كتابه "عودة الوعي"[37] وفيه يعدد الحكيم جوانب من إيجابيات ثورة يوليو1952م، ولكنه يعيد النظر في الحقبة الناصرية، ويعترف بما قام بها عبد الناصر من تغييرات اجتماعية واقتصادية، مسّت شرائح واسعة من الشعب، وأحدثت تغييرات بنيوية في المجتمع، ولكنه يتوقف أيضا عند تغييب الحريات والدستور وقتل الحياة السياسية، فالحياة الدستورية ضاعت، فلم يُلتَفَت إلى خطورة ضياعها في هذا الوقت، وأُفسِدَت الديمقراطية إفسادا، وجُعِل الحكم مطية للانتهازيين، ووسيلة للمستوزرين الذين صعدوا في أيام الناصرية، مع قمع الأجهزة الأمنية، وتسلطها، ومطاردتها للمعارضين، وأجواء الخوف التي ملأت البلاد، وكتمت الألسنة، وكانت سببا للهزيمة البشعة في عام 1967م.

والأهم في حصاد تجربة النظم الثورية القومية بقياداتها العسكرية، أنها قدمت سلوكا تسلطيا، جعل الناس متحسّرة الناس على حقبة ما قبل هذه النظم، عندما كانت تحت حكم نظم ملكية اتبعت نسقا ليبراليا تعدديا تنافسيا، أو كانت تعطي حريات أوسع لكثير من الفئات والجماعات والحركات التي طوردت بعد الثورة، بظاهرة تسمى اصطلاحا "نوستالجيا الماضي الديمقراطي"، على الرغم من أن القراءة التاريخية السوسيولوجية تكشف نسقا ماضويا هشا ضعيف الجذور، وكانت

[37]. المصطلح هنا مأخوذ من كتاب توفيق الحكيم، عودة الوعي، دار الشروق، القاهرة، عام 1974م.وبالطبع هناك اتهامات لاحقت الحكيم، منها سعيه إلى التناغم مع الحقبة الساداتية، واتهام "محمد حسنين هيكل" له بأنه كان من حارقي البخور الصامتين (الجبناء) أيام عبد الناصر، وكان يستطيع أن يقول كل ذلك في عهده، وهذا ما فعله الحكيم مع السادات عندما كتب بيانا سياسيا (لأول مرة في حياته)، فنعته السادات في نهاية عهده بأنه "العجوز الخرف" ا.هـ. نقول: تلك أزمة المثقف، عندما يلاعب السلطة سياسيا، ولا يعرف فن اللعب ولا فن السياسة ..انظر : أحمد يسري فهيد، توفيق الحكيم: أدب السلطة أم سلطة الأدب ؟، 26/ 7 / 2017م.موقع إضاءات الثقافي، https://www.ida2at.com/tawfiq-al-hakim-the-literature-of-power-or-the-power-of-literature/

النخب الليبرالية – قبل الثورات – ساعية للسلطة معادية للديمقراطية، تتستر وراءها قوى اقتصادية ثرية، تمثل طبقة اجتماعية عالية[38].

ولكن من الثابت أن تجربة نظام يوليو 1952م، لها إصلاحات اجتماعية واقتصادية نوعية، إلا أنها أنتجت في النهاية دولة استبدادية، أطلقت أيدي الأجهزة الأمنية في المجتمع والدولة، وأخضعت كافة أفراد المجتمع ومنظماته وجمعياته الأهلية لهيمنة السلطة، فتأممت الحياة المدنية والمجتمعية، مثلما تأمم الاقتصاد، وتكونت كتلة منتفعة من عمليات التأميم والإصلاح الزراعي. وسادت قيم كارثية، تتمثل في النفاق البيروقراطي، والكذب ونقص الإنتاجية، والمحسوبية والشلل في الأداء العام للفرد والمؤسسة، سواء في القطاع العام أو الخاص. وكل هذا ناتج عن احتكار رأس السلطة للقرار، وغياب الرقابة، والتعتيم على النيات الرسمية، وتخطيط الأداء الحكومي على شاكلة التخطيط في خلايا التنظيم السري الذي أعد للثورة، والذي استمر من خلال نظام الحزب / التنظيم الواحد، وتكوين طاقم سياسي / إداري مستقدم من الجيش. وهذا لا كله لا يجر إلا الكوارث فالطرف الواحد لا يصحح نفسه ولا ينتقدها، وينتهي به الأمر إلى ممارسة عكس ما يقول، مما يؤدي إلى تحويل خطابه إلى حجاب حاجز لما هو قائم بالفعل[39].

لقد شكلت هذه النظم الثورية / القومية / الاستبدادية ظاهرة محيرة، جعلت المثقف في حيرة، فهو أمام حاكم له منجزات عديدة على الصعيد الاجتماعي، ولكن لديه كثيرا من الأخطاء في الحكم والسياسة والحرب، مما دفع المثقفين ذوي النزعة الاشتراكية أو المرجعية القومية، لقبول التنازل عن حريات المجتمع في مقابل ما يمنحه الحاكم للشعب من مزايا وعطايا، وكأن الإصلاح لا يتأتى إلا بعواقب أليمة، وبفاتورة عالية يدفعها المختلِفون والمعارضة.

---

[38]. محمد جمال باروت، مداخلة في ندوة ثورة 23 يوليو: حصيلة ودروس، (ندوة)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2002م،: ص93.

[39]) السابق، ملخص لمداخلات: جميل مطر، محمد فائق، أحمد بيضون، ص 95- 98.

4.3.تأويل المستبد ثقافيا:

يرى المفكرون السياسيون "المستبدين"- قدامى كانوا أو محدثين – شخصيات بدائية من الناحية السياسية. فمهما أنجز الطاغية من أعمال، ومهما أقام من بناء وَرُقِيٍ، فلا قيمة لأعماله، إذ يكفيه أنه دمّر الإنسان. فماذا أفادت أعمال هتلر وموسوليني سوى خراب الدولتين ؟ ويكون السؤال الملح: هل يجوز فرض أعمال معينة على الإنسان وإجباره عليها، بدعوى أنها في صالحه ؟ وتأتي الإجابة بالنفي، لأن الإيمان نفسه لا يفرض على الناس. ويكون البديل بطرح الأفكار للنقاش العام على المجتمع، وتشكيل قاعدة مؤيدة لهذه الأفكار من النخبة ثم العامة[40]، فتكون هناك قاعدة مؤيدة من النخبة والجماهير، تساهم في نشر الفكرة وتعزيز التوجه، وتوجِد مؤيدين على قناعة علمية وعقلية ونفسية بالفكر المستهدف. و هذا بالطبع يحتاج إلى نظام ديمقراطي، بما يعنيه من حريات، وممثلين عن الشعب، وبما يتيحه من تعددية واسعة في الآراء.

فمن الخطأ الترويج لفكرة أن الحاكم ينطلق من مشروع ثوري، يقوم بفرضه على الجماهير قسرا، بدعوى أنه يعلم أين هي مصلحة الشعب، وعلى الشعب أن ينقاد طوعا أو كرها للحاكم، فهو هنا يلتقي مع الآية الكريمة: { قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ } (سورة غافر، الآية 29)، حيث يحتكر فرعون السلطة والتوجيه والتخطيط والعلم. وقد ورد في تفسير الآية على لسان فرعون: ما أريكم أيها الناس من الرأي والنصيحة إلا ما أرى لنفسي ولكم صلاحا وصوابا، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصواب"([41]).وهنا ربطٌ ما بين فكره الخاص النابع من مصلحته وأنانيته وغطرسته، وبين ما يجب أن يعيه الشعب، ليجبر

[40]) د. إمام عبد الفتاح إمام، الطاغية، ص124.

[41]. محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، د ت، ج21، ص378.

الشعب على التوحّد خلفه، ويذوب في شخصه، ومن ثم يصبح الاثنان – الشعب وفرعون – كلًا واحدا، ليختزل الحاكم الشعب في شخصه، بل ويحتكر المعتقد والفكر أيضا.

وإن جادل البعض، مستحضرا نظرية "المستبد العادل أو المستبد المستنير"، وهي حجة ساقها عدد كبير من المثقفين المتحالفين مع السلطة إبان حقبة صعود الأنظمة الثورية العربية، بقيادتها العسكرية، في أعقاب جلاء المستعمر الغربي. وتعتمد هذه الحجة على فكرة مأخوذة من التنظير الفلسفي الغربي، خاصة في أدبيات الفيلسوف الفرنسي "فولتير"، والذي جسد نظريته في شخص الملك إذا كان مستنيرا (محبا للشعر والموسيقى والفلسفة)، فله كل الحق أن يقود شعبه لما يريد، لأنه أعلى من شعبه ثقافة وعلما وتذوقا ورقيًّا. إلا أن الفلاسفة في فرنسا رفضوا وضع سلطة مطلقة في أيدي أي حاكم، حتى لو كان "مستبدًا مستنيرًا"، على قناعة منهم أن المستبدين الأخيار أو الصالحين نادرون، وقد يخفقون في استخدام سلطتهم بحكمة وإنصاف. وهو ما دفع "فولتير" إلى مراجعة نفسه بعد ذلك، ذاكرا سمات الحاكم المستنير بأنه: حاكم صالح وحازم وعادل ومستنير، ويقرّ بأنها سمات نادرة إلى حد كبير، بل إن اجتماعها في شخص واحد أكثر ندرة، ويعترف أيضا أن المستبد يجعل رعاياه أقرب إلى مستوى الحيوانات، التي اعتادت الطاعة العمياء[42].فوفق هذه النظرية يمتلك الحاكم الثقافة والرؤية والاطلاع، وبيده مفاتيح السلطة والملك، فيستطيع أن يحقق آراءه وينشر التنوير في شعبه.

أي أنه امتلك: السيف والعلم معا. وهنا على الجماهير أن تكون منقادة له ولتوجهاته، وما يروق له. وبالتالي، تتم المصادرة على توجهات العلماء والمثقفين الآخرين، وقد يذوب هؤلاء في توجهات الحاكم؛ خوفا أو مجاملة أو تزلفا.

[42]. غيرترود هيملفارب، الطرق إلى الحداثة: التنوير البريطاني والتنوير الفرنسي والتنوير الأمريكي، ترجمة: د.محمود سيد أحمد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2009، ص172، 173.

وللأسف فإن هذه النظرية سادت وانتشرت ودعمها مثقفون عرب في حقب مختلفة؛ نالوا بها حظوة عند السلطة، وصاروا ضمن منظومتها.

وربما يكون لديهم بعض العذر في ذلك، بحكم قهر السلطة وطرائقها الاستبدادية في الحكم، ورغبة هؤلاء في استغلال ما هو متاح لهم من قنوات ومساحات من أجل التواجد بين الناس، ونشر أفكارهم، فيتنازل المثقف عن مثالياته، في مقابل الحصول على امتيازات، وكي يتجنب الاضطهاد والعسف والسجن، الذي ناله غيره من المثقفين. وربما كان هذا دافعا ليوسف إدريس أن يقول بعدما ذاق مرارة السجن أيام عبد الناصر: "حبس عبد الناصر حريتي، من أجل حرية أكبر للمجتمع".

تطورت النظرية السابقة أكثر، عندما نادى أحد المثقفين في عقد الثمانينيّات من القرن العشرين؛ بتجسير الفجوة بين المثقف والأمير، والمقصود بلفظ "الأمير" هنا هم أهل السلطة وصناع القرار وملاّك الثروة. وقد جاءت الدعوة هادفة إلى تبصير من فن السلطة، والمساهمة الجادة في صنع القرار بشكل سليم، من خلال توفير الفكر والمعلومات والخبرات لصانع القرار، الذي سيوفر الغطاء الشرعي والمالي والسياسي. وقد جاءت هذه الدعوة بعد عقود من الحروب الأهلية العربية (على الصعيد العسكري والسياسي والثقافي) والتي انتهت بانتصار السلطة/ الدولة على المجتمع وتجييره لحسابها، بحيث أصبح المجتمع العربي شاهد زور لصالح الدولة التسلطية وتمسرحها المشوه على خشبات الحداثة والديمقراطية، وكان جل ما تطمح إليه النخب المثقفة الجديدة كما يسميها هشام شرابي هو عقد اجتماعي بصيغة مجازية على أمل أن يكون شريعة للمتعاقدين[43].

[43]. تركي علي الربيعو، المثقف والسلطة، صحيفة الوسط البحرينية، 9 / 1 / 2003م. http://www.alwasatnews.com/news/192460.html وصاحب هذه الدعوة هو الدكتور سعد الدين إبراهيم، عالم الاجتماع السياسي (مصر)، وقد أسس في عقد الثمانينيات منتدى الفكر العربي في عمّان.

والدعوة بلا شك دعوة حميدة، ولكنها تحمل في طياتها مقدارا من تراجع دور المثقف الريادي، حيث بات لاهثا وراء السلطة، محتميا بها، ساعيا إلى الارتزاق منها، وبالتالي سيعزف على عزفها، ويتراجع دوره التنويري والتغييري.

وتتعاظم الأزمة أيضا في كون هذا التوجه يؤدي إلى تدجين المثقف ورضوخه تدريجيا لتوجهات السلطة الحاكمة، فإذا تغيرت السلطة، سعى إلى الاقتراب من السلطة الجديدة، وتلوّن بألوانها، وردد وفلسف مقولاتها، فمن ذاق عسل السلطة ومناصبها وإعلامها، وعرف أيضا قسوتها؛ يصعب عليه أن يتراجع أو يعارض.

4.4. التعصب الثقافي والطغيان السياسي:

هناك صلة بين التعصب الثقافي الأعمى والطغيان السياسي[44]، فحيثما وجِدَ الطغيان؛ كان هناك تعصب ثقافي ناتج عن أحادية الرأي والرؤية التي يطرحها النظام السياسي على الشعب، وكما تقول الحكمة "الناس على دين ملوكهم" والدين هنا بمعنى الطريقة، فإذا طغى الملوك طغوا، وإذا أحسن الملوك أحسن الشعب. والأمر ينسحب أيضا على البعد الثقافي، بمعنى إذا وجد المثقفون من النظام قبولا للرأي الآخر، وتسامحا، فهم ينشرون أفكارا واتجاهات متعددة، وإذا وجدوا أحادية وشمولية، فلا يسعهم إلا التمجيد أو السكوت.

لنعلم أن المثقفين في النهاية جزء من المنظومة السائدة في المجتمع، وتنضبط حركتهم بحركة المجتمع، وإذا كان البعض يتخيل أن المثقف يمكنه بقصيدة أو بخطبة أو برواية أو بكتاب أن يقلب المجتمع، ويدفع الجماهير إلى الغضب والثورة؛ فهو واهم دون شك، فدور المثقف – مع غيره من المفكرين والمثقفين – تنويري للعقول، والعقول والنفوس معا لا تتغير في يوم وليلة، ولا شهر أو سنة،

[44]) الهوية والعنف: وهم المصير الحتمي، ص111.

وإنما بفعل التراكم التنويري، الذي يترسخ في الوعي الجمعي العام، ومن ثم تتم ترجمة الوعي الجديد إلى تغيير، يشمل السلطة ومؤسساتها.

يقال هذا، حتى لا تتعاظم نفسية المثقف فيظل حابسا ذاته في برج عال، يردد كلاما نخبويا متعاليا، ويظن أن الشعب مدرك مستوعب له، والحقيقة غير ذلك. فعلى المثقف قراءة واقعه، ومنظومته، والأهم قراءة نفسية الشعب وطموحاته.

5.المثقف والثورة والاستبداد:

من المهم قراءة سلوك المثقفين ومواقفهم وآرائهم في ضوء حتميات مجتمعية وسياسية أخرى تشكل الإدراك العام، وتضع أطرًا للعمل الاجتماعي والحركة الثقافية.

فالواقع يشهد أن الحرية في المجتمع، تصنع ما يسمى بالحرية الثقافية التي تعني أفكارا وأبعادا كثيرة، وتعني أيضا حرية المجتمع / الشعب / المثقفين في تحديد أولوياته أو تغييرها، فلا يضعها المستبد وفق أجندته الدكتاتورية [45].

ومن هنا، علينا انتزاع الحريات دوما، واقتناص المزيد منها، فالمجتمع يتأخر عقودا، عندما يلوذ أهله ومثقفوه ونخبته الجادة من الخوف إلى الدعة، ثم السقوط: في إغراءات السلطة بالوظيفة والمال، وكلها حوافز تؤدي إلى هتك الذمة الوطنية والخيانة الفكرية وسحق كرامته بوصفه إنسانا ومثقفا عضويا، وتحيله إلى راكض خلف تفاهات منصات الإعلام، والارتزاق على فتات موائد أجهزة الأمن، ومن ثم ينكفئ أكثر على ذاته وملذاته، وقد يتطرف أكثر ليكون عينا للنظام، وجاسوسا للأمن، ومصدرا للافتراءات، ضد من كان معهم في بيت واحد، ومشى معهم في درب واحد [46].

إن مآلات المثقف هنا هو تحوله إلى جملة من اللاءات: فهو اللامثقف، اللامفكر، اللامتقن، اللاتنويري، وأصبح محملا بجملة من النعوت: رجل النظام، العين والجاسوس والمرشد، المبرر، البوق،

[45]) السابق، ص118.

[46]. إسحاق الشيخ يعقوب، المساءلة: في أدب السجون، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2011م، ص22.

المنظِّر المغيَّب..إلخ، وكلها تصب في خانة واحدة ألا وهي فقدانه علامات المثقف الحقيقي وسلوكياته ومواقفه.

وتلك حيلة المستبد، الذي يسعى بدهائه إلى إدخال المثقفين إلى"الحظيرة"[47] السلطوية، من خلال تخويفهم واحتوائهم وتدجينهم، أملا في الاستفادة منهم في محاربة تيارات أكثر شعبوية وراديكالية، وكي يتركوا الهجوم على السلطة وتبيان مفاسدها وإظهار دكتاتوريتها، والانشغال بأعمال فكرية / ثقافية أخرى عنوانها المداهنة والتغييب والتدجين، وإن كان المثقفون يدّعون غير ذلك.

5.1.جريمة الاستبداد مع المثقفين:

ترتكب السلطة المستبدة جرما كبيرا، عندما تحوّل عقولا مثقفة كانت يوما تبشر بالخير للوطن والأمة، من خلال إبداعاتها التي ستضيف كثيرا إلى الوطن، إلى عقول هجينة، تجمع البقايا: بقايا إبداع، بقايا فكر، بقايا ثقافة، بقايا مواقف، وبقايا إنسانية، وأيضا تمتاح من السلطة فكر: المهادنة في القول، الصمت على الانتهاك، إشغال الجماهير بالتفاهات، الركض خلف المناصب، تقليب الأجندة نحو القوى الفكرية المتصارعة مع السلطة، ومن ثم تضيع رسالة المثقف التنويرية، ويتحول في أحسن الأحوال إلى فئة التكنوقراط منغمسا في تخصصه، وفي أسوئها يصبح ظاهرة صوتية، يكرر مقولات جامدة، يتعمد فيها التنظير، ويخشى من مقاربة الواقع، لأنه قد فرّ منه في الحقيقة، فكيف يقاربه ؟

[47]. استخدم "فاروق حسني" وزير الثقافة المصري الأسبق لفظ "الحظيرة" عندما تحدث عن دوره في إدماج المثقفين في السلطة. وقد صار هناك ما يسمى بأخلاقيات الحظيرة، وصار الصراع بين شياهها الضالة (المثقفين)؛ هي الغاية النهائية للثقافة المصرية بعد أن فقد أبناؤها القدرة على لعب أي دور خارج حدود مزرعة الدولة. راجع مقال: هاني درويش، أخلاقيات الحظيرة تطغى على المشهد الثقافي المصري، صحيفة المستقبل اللبنانية، 14 / 5 / 2006م.
/http://almustaqbal.com/article/177201

والغريب في الأمر، أننا نتفاجأ بما يسمى "عنتريات المثقفين"، والتي يعبر عنها أحدهم، وقد أخذته العزة، وتخيّل أن "السجن مدرسة نضالية تشدّ من عزيمة الرجال، وتقوي إرادة التحدي، وتضاعف إصرارهم على التمسك بقضية شعبهم، وكان يتمنى السجن لنفسه ولرفقائه لتلقين السلطة وأجهزة المباحث دروسا في الصمود والوطنية"[48].وهو ما نجده لدى اليسار المصري مثلا، الذي توزع في ستينيات القرن العشرين إلى جماعات عديدة (لينيين أو ماويين أو تورتسكاويين) وآخرون كانوا متيمين وعلى اتصال مع الاتحاد السوفيتي، ومدافعين عن تجربته الثورية الحمراء. وشهدت مقاهي وسط البلد في القاهرة حواراتهم ومناقشاتهم، والبعض منهم كان يترقب لحظة القبض عليه كي يقضي عدة شهور بالسجن يخرج بعدها مناضلا "معتمَدًا"، ليتباهى على المقهى أو في الندوات أنه مناضل عتيد[49].

المثقف هنا يتعامل مع السجن، ويتبنى الاعتقال وهو غير واع للمآلات، ويتخيل صورة مثالية أقرب لليوتوبيا عن النضال. وتلك من نكبات المثقف، عندما لا يدرك قوة السلطة، ويتعامل باستعلائية، وهو جالس بين رفاقه حاملاً كتبَه، مرددا نظرياته الثورية، التي ستقلب الدنيا – في تصوره – رأسا على عقب، وستأتي به وبرفاقه على سدة الحكم، إما قادة أو منظّرين أو ملهمين لجماهير الثورة في الشوارع، وسيلقون بمن في السلطة في السجون، أو سيسحلهم الثوار في الشوارع، ليقام النظام الثوري، الذي سيغير حياة الناس كلها، ويحقق جمهوريته الأفلاطونية على الأرض، وكأن الشعب بكل فئاته وشرائحه في انتظار الثورة.

إنه تصور مفعم بالمثالية، مستوحى من الثورات الماركسية التي عمت العالم في النصف الأول ومطلع النصف الثاني من القرن العشرين، بأحداث دراماتيكية تلوّنت بالدماء، وانتهت بنظم حكم

[48]. إسحاق الشيخ يعقوب، المساءلة: في أدب السجون، ص33.

[49]. د.أسامة أبو طالب، مكاشفات في متلازمة الإبداع والقهر (25)، جريدة القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة المصرية، عدد الثلاثاء 12 ديسمبر 2017م، ص 3.

دكتاتورية، ضحت بملايين الأنفس، تحت مبدأ فليذهب الشعب وتبقى النظرية[50]، لتصبح النظرية – التي هي نتاج بشري – نصًا مقدسا أو بالأدق دوجماطيقيا؛ ينبغي التضحية من أجله بكل غال وثمين، ولو كان الشعب كله، ليتبقى – في النهاية – الحاكم والنظرية.

5.2.المثقف والثورة:

يمكن قراءة موقف المثقف من الثورة، من باب تأويل الجسد وعلاقته بالتغيير الثوري، سنجد أن النظم الثورية التي قامت على أجساد الجماهير وتضحياتهم، انتهت بأن أصبح جسد الشعب / الجمهور/ الوطن هو جسد الحاكم المستبد، مدعّما نظرية الكل / الشعب؛ في واحد / الحاكم. وهذا يغاير النظم الارستقراطية، التي ثار الشعب ضدها، حيث كان الجسد فيها يعني جسد القلة التي تملك مفاتيح صنع القرار. على عكس النظم الديمقراطية، فإن الجسد يعني الأغلبية التي تمتلك مقاليد الحكم[51]، فالجسد في السلطة المستبدة كتلة واحدة بتوحّد الشعب مع الطاغية، أما في السلطة الأرستقراطية فهو جسد القلة الحاكمة، في مواجهة الكتلة الجسدية للشعب الفقير، أما في النظام الديمقراطي فهو أجساد متعددة تتلاقى دوما، فالسلطة التي تأتي باختيار الشعب، وتعود للشعب ثانية لتعيش بين أجساد الجماهير دون تفرقة، بل هي تختلط بالجماهير جسديا خلال توليها السلطة، وتلتقي أيضا بالمعارضة جسديا وتحاورها، وتعلم أنها قد تحتل مكانها في السلطة، فتحترمها

[50]. مقولة منسوبة إلى الزعيم السوفيتي جوزيف ستالين، ومعروف عنه استبداده وعنفه الدموي، التي وصلت إلى حد تهجير شعوب بأكملها إلى صقيع سيبيريا ليموت الملايين منهم خلال الانتقال والحياة هناك. كما تسبب بموت الملايين في الحرب العالمية الثانية. وللأسف فإن هذا النهج حوّل غايات الفلسفة الماركسية الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية إلى نهج ثوري استبدادي، شاع وانتشر في دول وصاحبه تقديس الزعيم ستالين ذاته فاسم لينين المنظر والفيلسوف الكبير لم يُطلق على مدينة واحدة إلا بعد موته، ولكن اسم ستالين أطُلق مدة حياته على اثنتي عشرة مدينة منها: ستالينجراد، وستالين على « ستالينسك » آباد، وستالينيز، وستاليني، وستالينيكا، وستالينوجورسك، وليس من السهل حصر عدد الشوارع والمزارع الجماعية والمتاجر والسفن والجسور التي أطُلق عليها اسم ستالين في جميع أنحاء روسيا. كما قتل حوالي 30 ألف من ضباط وجنود الجيش الأحمر. انظر تفصيلا: فرح جبران، ستالين، نشر: مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع، القاهرة، 2014م، ص18، 34، 97.

[51]. مريم وحيد، الجسد والسياسة، ص127، 128.

وتحافظ على حقوقها اليوم؛ حتى تحفظ المعارضة – إذا حكمت – حقوق أهل السلطة غدا، والشعب يقف مراقبا لهما، وكل هذا وفق عقد اجتماعي توافقي.

إن أزمة النظم الاستبدادية؛ أن المستبد لا ينظر إلى الشعب إلا بوصفه كتلة جسدية واحدة، تهتف له وبشعاراته، وتردد مقولاته، ومن ثم تتوحّد — في مخيلته — في جسد الحاكم المستبد. ولكن هناك جسدا آخر، هو جسد المعارضة، وهؤلاء – إذا نظرنا إليهم تأويليا — سنجدهم مغيبين، مقموعين، معذبين، أي أن أجسادهم غير ظاهرة في المشهد، وإذا حضر ذكرهم فهم: الخونة، العملاء، المتآمرون.

ويظل المثقف / المعارض، في إسار تصوره المنغلق، وربما يكون مستوحى من النظام ذاته، فلا أمل بالتغيير إلا بثورة عارمة، تأكل أجساد الموالين للمستبد.

وعمليا، لا يمكن التغيير بهذا النهج الراديكالي، المتمثل في ثورة وسلطة وملايين الرؤوس التي تهتف بشعارات الثورة، وهو مشهد حماسي مفعم بالآمال، إلا أنه وقتي، لا يعرف قوى الثورة المضادة، التي يمكنها قهر الحشود، وتزييف وعيها، وإعادة الانتصار مجددا. وأيضا يمكنها أن تتعايش مع السلطة الجديدة، من خلال عشرات الثغرات والشخصيات المتعاونة معها. ففكرة النقاء الثوري، والتغيير المثالي؛ محفوفة بكم هائل من المضادات، التي حتما ستؤثر، وعلى من يفكر في التغيير وضعها في الحسبان، وإلا تضخمت والتهمته.

أيضا، فإن التغيير نفسي واجتماعي قبل أن يكون سياسيا واقتصاديا، بمعنى أنه إذا طال أعلى السلطة، وتكون القاعدة الشعبية غير مقتنعة ومتضررة، فإن الشعب لن يكون حاضنا للتغيير، خاصة إذا أساء القادة الجدد إدارة الأمور، وخسر الشعب كثيرا بسبب سياستهم، مما يجعلنا ننتصر للتغيير التدريجي الهادئ.

أما عن المثقف وعنتريته النضالية نحو السجن، فإنه لا يعلم أن "السجن لعنة تلاحق المسجون مدى الحياة، السجن فخ الطاغية، ومن يقع فيه يُصبح تحت قبضة سياطه، السجن عذاب يهري

الروح قبل أن يهري الجسد. إن الحكمة الصوفية: "من ذاق عرف"؛ تراها شاملة في الحياة لطيباتها وخبائثها. فمن ذاق مرارة السجن وعذاب الروح فيه لا يمكن أن يتمناه لغيره، فكيف لنفسه"[52].

وقد ورد في الصحيح تحذيرا عن عدم تمني الفتنة والحذر من الابتلاء بأيدي الأعداء، كما في حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) :"لَا تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا"[53]، وقد جاء في شرح الحديث: حِكْمَةُ النَّهْيِ أَنَّ الْمَرْءَ لَا يَعْلَمُ مَا يَؤولُ إِلَيْهِ الْأَمْرُ، وَهُوَ نَظِيرُ سُؤَالِ الْعَافِيَةِ مِنَ الْفِتَنِ، وَقَدْ قَالَ الصِّدِّيقُ"لَأَنْ أُعَافَى فَأَشْكُرَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُبْتَلَى فَأَصْبِرَ"وَقَالَ غَيْرُهُ: إِنَّمَا نَهَى عَنْ تَمَنِّي لِقَاءِ الْعَدُوِّ لِمَا فِيهِ مِنْ صُورَةِ الْإِعْجَابِ وَالاتِّكَالِ عَلَى النُّفُوسِ وَالْوُثُوقِ بِالْقُوَّةِ وَقِلَّةِ الِاهْتِمَامِ بِالْعَدُوِّ، وَكُلُّ ذَلِكَ يُبَايِنُ الِاحْتِيَاطَ وَالْأَخْذَ بِالْحَزْمِ. وَقِيلَ يُحْمَلُ النَّهْيُ عَلَى مَا إِذَا وَقَعَ الشَّكُّ فِي الْمَصْلَحَةِ أَوْ حُصُولِ الضَّرَرِ[54].

سنجد أن الحذر من فتنة لقاء العدو يعود إلى الخوف من عواقب الأمر على النفس: إما بالضرر الجسدي والنفسي، أو بحالة الإعجاب بالنفس، وكلها آفات قد تؤدي إلى إفساد الذات، ولكن في المقابل، يكون الثبات والصبر والتمسك بالحقائق والمبادئ عندما يتعرض المرء للعدو / المحنة / الفتنة/ السجن.

فالطغاة لن يلتفتوا لصمود مناضل، ولا عزة نفس ثور ي، ولا ثبات مقاوِم، فقد لا يعلم عنه شيئا، فهناك عشرات الآلاف–غير هؤلاء – قابعون في السجون، بل إن لذة الطاغية في إسكات / إخفاء / قتل / نفي المعارض له، وهناك من الطغاة من يتلذذ بالتصفية الفورية المعارضين له، مستخدما قاموس التخوين.

---

[52]. المساءلة: في أدب السجون، ص 34.

[53]. صحيح البخاري، الحديث 2861.

[54]. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار الريان للتراث، القاهرة، 1407هـ، 1986م، كتاب الجهاد والسير، حاشية شرح الحديث المذكور، ص81.

وأحداث التاريخ المعاصر زاخرة بأمثلة عديدة، صفّى الحكام معارضيهم في ساعتهم، بعد خطابات حماسية، زاخرة بمفردات قاموس التخوين، والتي هي جزء أساسي من الخطاب الرسمي الذي يسوّقه الطاغية للشعب عن المعارضة.

ومثال على ذلك: ما فعله صدام حسين بعدما استقال الرئيس السابق "حسن البكر" بستة أيام، حيث تولى صدام السلطة، وكان عليه التخلص من معارضيه في مجلس قيادة الثورة. وغداة الاجتماع، ذكروا أسماء عدد من المتآمرين (68 من قيادات حزب البعث العراقي) زعموا أنهم كانوا ضد تولي صدام الحكم، حيث تم اقتياد كل من يُذْكَر اسمه على المنصة في خطاب الرئيس، لتتم تصفيته – على الفور – خارج القاعة، أمام مندوبي حزب البعث في المحافظات العراقية، الذين طُلِب منهم الحضور مسبقا، ومع كل واحد منهم بندقية، وبعد الاجتماع. تمت تصفية مئات الأفراد من حزب البعث نفسه، بجانب بقية المعارضة بأيدي مندوبي حزب البعث والشرطة في الشوارع، وكان هدف صدام من كل ذلك هو: تقليص صفوف من يمثلون تهديدا له، والإبقاء على الأكثر ولاء، وفق مقولة صدام: "طالما هناك ثورة، فهناك ثورة مضادة"[55].

ومن المفارقات في هذه القضية، أن الديكتاتور يعيش عادة في شرنقة من النرجسية والغرور والعظمة، تضخمت مع مرور الزمن، وبقائه الطويل في السلطة، وتصديقه ما تردده أجهزة الدعاية والإعلام التابعة له، فيتخيل نفسه منةً من الله للشعب، وأنه لابد من وجوده على رأس الحكم، من أجل الاستقرار والأمن والتنمية والأمان. وهنا تكون المفارقة، أنه أطلق أجهزة الإعلام لتزييف وعي الشعب، فأصبح هو ضحية لها، وصدّق سحرة الإعلام عنده. كل هذا، يحجب عنه ما ترتكبه حاشيته ومعاونوه وأجهزته الأمنية والمخابراتية، ويصبح عاجزا عن فعل شيء، فقد امتلأت أذناه

[55]. دليل الاستبداد والمستبدين، ص80.

بالتقارير السرية لأجهزة مخابراته، وتشبعت عيناه بما تبثه أجهزة إعلامه، فلا يتوقع أن يكون يوما خارج السلطة، أو يستغنى عنه الشعب.

5.3. فيلم كش ملك نموذجا:

ويقدم فيلم"CHECKMATE أو كش ملك"(1994م) [56]، قصة دالة على ذلك، فهو يطرح قصة أحد الحكام الدكتاتوريين في إحدى دول العالم الثالث، وهو الرئيس "مسليم"، الذي تم الانقلاب عليه وعزله من الحكم،، عندما كان في زيارة رسمية إلى بلد مجاور، فلجأ سياسيا إلى إحدى الدول الأوروبية، حيث عاش في قصر منيف، في قرية جبلية، وسط حراسة مشددة، ومعه زوجته "ياسمين"، وساعده الأيمن "سعيد"، وطاقم كبير من الخدم والطباخين. وتصله تباعا أخبار الثوار الذي استولوا على السلطة، وفضحوا فظائعه نحو شعبه، وقد استطاع "سعيد" أن يتواصل مع قوى الثورة المضادة المؤيدة للرئيس "مسليم"، الذين عملوا على تدبير محاولة انقلابية ضد السلطة الجديدة، وعودة "مسليم" للحكم، وقد أعطتهم "ياسمين" الضوء الأخضر، ثم أخبرت زوجها بما فعلت، فتعجب من إعطائها موافقة دون الرجوع إليه، فابتسمت، معلنة أنها تعرف عشقه للسلطة جيدا.

جاء الابن "مهدى" وصديقته "مايا"، لزيارة والده الرئيس، ويمكث معه بعض الوقت، ينبهر "مسليم" بـ "مايا" ويتعمق الحوار بينهما، وهما يقضيان الساعات الطويلة يتجولان في حدائق القصر، وعندما تختلي به "مايا" في مكان ناء عن القصر، فتخرج له مسدسا تصوبه نحوه، مفصحة له عن نواياها الحقيقية، وعزمها على قتله، وأنها خططت طيلة حياتها من أجل هذه اللحظة، لأنه الديكتاتور الذي قتل والدها المعارض "عمر كريم"، فذاقت اليتم، وعانت أسرتها الشقاء بسببه. إلا

[56]. فيلم"CHECKMATE أو كش ملك"إنتاج تونسي، إخراج: رشيد فرشيو، قصة وسيناريو وحوار: رشيد فرشيو، حسن يوسف.بطولة: شريهان، جميل راتب، عبدالمجيد لكحل، فرانسواز كريستوف، نيس تافزنييه، محمد تايتامبو.
موقع السينما.كوم.https://www.elcinema.com/work/1000748/

أنها عجزت عن تنفيذ ما تريد وتصلب المسدس في يدها، لأنها لا تعرف لغة الدماء، وقد تعلمت من والدها أن تناضل بسلمية. يتفاجأ "مسليم" بما قالت، وينصت لها، وهي تعدد الجرائم التي ارتكبها ضد آلاف السياسيين، والعذابات التي عاشها ذووهم، بغياب أبنائهم ما بين: قتل أو نفي أو اعتقال أو إخفاء قسري.

تغيرت أفكار "مسليم"، وواجه نفسه بشجاعة، مدركا أن عليه تسليم نفسه للمحاكمة، فقد يكون هذا غفرانا لما فعل، خاصة وقد جاءته أنباء عن فشل أعوانه في الداخل في المحاولة الانقلابية، فودّع "مايا" في صباح أحد الأيام، واستقل سيارته مغادرا القصر. وعندما توغلت السيارة في الطريق المنحدر بين الجبال؛ تم تفجيرها، وتحولت بمن فيها إلى كتلة من لهب.

ثم تظهر زوجته في شرفة القصر، وهي تراقب ما حدث بهدوء مع ساعده الأيمن "سعيد"، فهما وراء التفجير، حتى لا يفضح الأسرة بما سيفعل.

رسالة الفيلم توضح المصير النهائي للدكتاتور عندما يكون خارج السلطة، إلا أنها تنتصر للجانب الإنساني في شخصه، وتكشف أنه كان متخما بالسلطة، واقعا في إسار حاشيته وأتباعه وأقاربه، الذين حجبوا عنه المآسي التي عاشها معارضوه وأسرهم. وللأسف عندما يصل إلى الحقيقة، يتم اغتياله على أيدي زوجته، فينبغي إسكاته حتى لا يتكلم ويفضح. وللأسف الفيلم من إنتاج 1994م، وتكررت أحداثه في حياتنا، وانتهى مثله العديد من الطغاة، بنهايات دامية، لأنهم لم يتعظوا.

خاتمة : يمكن أن نخلص في نهاية هذا البحث بعدة استنتاجات يمكن بلورتها فيما يأتي :

– إن الاعتقال السياسي قرين الاستبداد، بل هو ناتج من نواتجه، ولا يمكن فهم سرديات الاعتقال السياسي وأدب السجون، إلا بالنظر إلى الأجواء السياسية والفكرية خارج أسوار السجن.

– يحمل الاستبداد وجهين: الأول : لطاغية يرى نفسه فرعونا، فوق البشر، وأقرب إلى الألوهية، أو أنه منّة من الله على شعبه. وعلى الشعب أن يقدّر هذه النعمة الممنوحة له. والوجه الثاني: إن الطغاة يمتلكون إيديولوجية واحدة، يتم فرضها على الشعب قسرا، ومن خالف أو عارض أو ساعد معارضا، فعليه أن يتحمل وزر ما نطق به أو أبداه أو سلكه.

– على قدر قسوة السجن، وعنف السجان، وتكبر الديكتاتور، إلا أنه سبيل لاكتشاف معادن المخلصين، وتأتي مفارقة التاريخ أن الشعوب وإن خُدِعت بإعلام حكوماتها إلا أنها تعرف يقينا الصادقين من المتراقصين، نقول ذلك لكي يعي المتفيقهون الراقصون على حبال السلطة تارة، والفكر والإعلام تارة، والشعب تارة ثالثة؛ أن ذاكرة الشعوب قد تنسى مؤقتا، ولكنها ليست ذاكرة أسماك، إنما ذاكرة أشبه برمال الصحراء، تختزن الماء في باطنها، ثم تفجره عيونا وآبارا في مواطن بعينها، وقد تفجره نارا ملتهبة تهري البطون.

– يمكن أن يكون الوطن على سعته يمكن أن يصبح سجنا للشعب، وأن المواطن قد يسجن نفسه في أعماقه، ويعيش متنقلا في رحاب وطنه والخوف يملأه. وهذا ما وجدناه في أدب السجون والاعتقال، ووجدناه أيضا في العديد من الأفلام الدرامية التي تم الاستشهاد بها.

قائمة المراجع المعتمدة:

أولا: الكتب:

– أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار الريان للتراث، القاهرة، 1407هـ، 1986م.

– د.أحمد زكي بدوي، معجم المصطلحات السياسية والدولية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، 1989م.

– إسحاق الشيخ يعقوب، المساءلة: في أدب السجون، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2011م.

– أمارتيا صن، الهوية والعنف: وهم المصير الحتمي، ترجمة: سحر توفيق، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2008م.

– د. إمام عبد الفتاح إمام، الطاغية: دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1994م.

– بروس بيونو دو مسقيتا، ألستير سميث، دليل الاستبداد والمستبدين: الفساد سبيلا للاستيلاء على السلطة والحفاظ عليها، ترجمة: د.فاطمة نصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2014م.

– تشارلز آر.بيتز، فكرة حقوق الإنسان، ترجمة: شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،2015م.

– توفيق الحكيم، عودة الوعي، دار الشروق، القاهرة، عام 1974م.

– جمال الدين بن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة.

– جورج سباين، تطور الفكر السياسي، (الكتاب الرابع) ترجمة: علي إبراهيم السيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د ت.

– جورج سباين، تطور الفكر السياسي (الكتاب الخامس)، ترجمة: د.راشد البراوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د ت.

– غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1984م.

– فرح جبران، ستالين، نشر: مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع، القاهرة، 2014م

– قاموس المصطلحات السياسية، منشورات: معهد البحرين للتنمية السياسية، المنامة، 2014م.

– محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، د ت.

– محمد أنور رياض، القابضون على الجمر، منشورات دار البحوث العلمية، الكويت، 1982 م.

– د.محمد عمارة، الإسلام وحقوق الإنسان، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1985م.

– مريم وحيد، الجسد والسياسة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2015م.

– د.مصلح الصالح، الشامل: قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية، دار عالم الكتب، الرياض، ط1، 1420هـ، 1999م.

– ميشيل فوكو، المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن، ترجمة: د.علي مقلد، منشورات مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990م.

– مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط4، 2004م.

–ندوة ثورة 23 يوليو: حصيلة ودروس، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2002م.

– د.يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في المجتمع الجاهلي، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، القاهرة، 1978م.

ثانيا: الصحف والمواقع الإلكترونية. (تاريخ الدخول 26/ يونيو 2020).

- أحمد يسري فهيد، توفيق الحكيم: أدب السلطة أم سلطة الأدب ؟، 26/ 7 / 2017م.موقع إضاءات الثقافي، https://www.ida2at.com/tawfiq-al-hakim-the-literature-of-power-or-the-power-of-literature

- د.أسامة أبو طالب، مكاشفات في متلازمة الإبداع والقهر (25)، جريدة القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة المصرية، عدد الثلاثاء 12 ديسمبر 2017م

- تركي علي الربيعو، المثقف والسلطة، صحيفة الوسط البحرينية، 9 / 1 / 2003م. http://www.alwasatnews.com/news/192460.html

- روان الشيمي، جواهر السينما المصرية: شيء من الخوف، ترجمة: عايدة سيف الدولة، موقع مدى مصر للسينما.https://www.madamasr.com/ar/2017/06/05

- فيلم"CHECKMATE أو كش ملك موقع السينما.كوم. https://www.elcinema.com/work/1000748

-الموسوعة العربية Arab Encyclopedia، مادة سجن، https://www.arab-ency.com/ar

- هاني درويش، أخلاقيات الحظيرة تطغى على المشهد الثقافي المصري، صحيفة المستقبل اللبنانية، 14 / 5 / 2006م.

http://almustaqbal.com/article/177201/